

الباب الأول

الفصل الأول

بيثة خوارزم

على بصيص ضئيل من النور - لقلة المراجع المسعفة والنصوص المؤيدة - نحاول تلمس السبيل إلى معرفة بيثة الزمخشري التي أنجبته . فقد ولد الزمخشري بزمخشري لإحدى قرى خوارزم^(١) - وخوارزم هذه يرى بارتولد أنها لا بد كانت منذ قديم ذات أهمية في تقدم الحضارة في آسيا الوسطى . وما ينبتنا به البيروني عن بدء الحضارة في خوارزم سنة ١٢٩٢ ق.م. هو طبعاً مجرد روايات^(٢) . إلا أن ما يذكره البيروني من « إهلاك قتيبة بن مسلم الباهلي كتيبة الخوارزميين وقتله هرايذتهم وإحراقه كتبهم ومصحفهم »^(٣) ومن إشاراته إلى تقويم وأعياد الخوارزميين نرى أن خوارزم حتى القرن الثامن الميلادي ، ومدة الزرادشتيين إلى القرن الحادي عشر الميلادي قد ازدهرت فيها الثقافة الإيرانية القديمة .

وتتفق كلمة جغرافي العرب ورحالتهم على خصب بقعة خوارزم . فالمقدسي يقول عنها : « هي كورة جلييلة واسعة كثيرة المدن ممتدة العمارة . . . فيها المنازل والبساتين كثيرة المعاصر والمزارع والشجر والفواكه والخيرات مفيدة لأهل التجارات »^(٤) . أما ياقوت فيقول : وكنت قد جثتها سنة ٦١٦ هـ فما رأيت ولاية قط أعمر منها . . . متصلة العمارة متقاربة القرى كثيرة البيوت المفردة والقصور في صحاريها قلماً يقع نظرك في رساتيقها على موضع لا عمارة فيها، هذا مع كثرة الشجر بها . . . وأكثر ضياع خوارزم مدن ذات أسواق

(١) وفيات الأعيان ج ٢ لابن خلكان ص ١٠٧ - طبعة بولاق سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة (خوارزم) .

(٣) الآثار الباقية للبيروني ص ٣٦ و ٤٨ - طبعة أوروبا .

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي ص ٢٨٤ - طبعة أوروبا .

ونخيرات ودكاكين^(١) وفي خوارزم يقول ابن بطوطة: «خوارزم . . . لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكثيرة والحاسن الأثيرة وهي ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر»^(٢).

ثم هي ثغر من ثغور الإسلام عرضة لغزوات غير المسلمين ، وكان لهذا أثره في الحماس الديني الذي ينشأ عليه أبنائها . يقول ابن سمعة الكاتب عن خوارزم : «وهي ثغر من ثغور الإسلام قد اكتنفها أهل الشرك وأطافت بها قبائل الترك فغزوا أهلها معهم دائم والقتال فيما بينهم قائم قد أخلصوا في ذلك نياتهم وأحصوا عن طوياتهم وقد تكفل الله بنصرهم في عامة الأوقات ومنحهم الغلبة في كافة الوقعات ثم حصنها الله بجيحهون بواد عسر المعبر بعيد المسالك غزير الماء كبير المهالك فلا يتوغلها متوغل إلا خاطر بمهجته ولا سلك منافذها سالك إلا كان على يأس من سلامته»^(٣).

ويشير ياقوت إلى هذه الناحية الدينية في أهل خوارزم بقوله : وكان المؤذن يقوم في سحرة من الليل يقارب نصفه فلا يزال يزعم إلى الفجر (قامت)^(٤) . ويقول أيضاً : «وما أظن كان في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في . . . ملازمة أسباب الشرايع والدين»^(٥) . وابن بطوطة يصور هذه الناحية بقوله : ولهم عادة جميلة في الصلاة لم أرها لغيرهم وهي أن المؤذنين بمساجدها يطوف كل واحد منهم على دور جيران مسجده معلماً لهم بحضور الصلاة فن لم يحضر الصلاة مع الجماعة ضربه الإمام بمحضر الجماعة، وفي كل مسجد درة معلقة يرسم ذلك، ويغرم خمسة دنانير تنفق في مصالح المسجد أو تطعم للفقراء والمساكين، ويذكرون أن هذه العادة عندهم مستمرة على قديم الزمان^(٦) .

(١) معجم البلدان لياقوت الحموي ج ٥ ص ٤٨٢ - طبعة أوروبا .

(٢) الجزء الثالث من رحلة ابن بطوطة ص ٣ - طبع المطبعة الأهلية بباريس .

(٣) الباب التاسع من مخطوط ربيع الأبرار للزنجشري (بمكتبة بلدية الإسكندرية) .

(٤) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٤٨٤ .

(٥) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٤٨٦ .

(٦) الجزء الثالث من رحلة ابن بطوطة ص ٤ و ٥ .

وقد طبع هذا الإقليم الخصب الذي تتنوع مناظره بين مزارع ومياه وصحارى أهله بطابعه . فكان لطبيعته الجميلة ووفرة أسباب المعيشة والترف فيه ؛ كان لهذا كله أثره فى صفاء أخيلة أدبائه وشعرائه وملهماً لهم بنبات الشعر وعقائل النثر . فتخرج منه جماعة من الأدباء والشعراء . . أفرد لأهل القرن الرابع منهم صاحب اليتيمة باباً فى كتابه^(١) . وترجم ياقوت لبعض آخر حتى عصره^(٢) وذكر آخرين السيوطى^(٣) . وأنبأ إقليم خوارزم الذى كان بحكم موقعه عاملاً مؤثراً فى العاطفة الدينية لأهله - أنبت جماعة من المحدثين ذكر الخطيب البغدادي من عاش منهم حتى القرن الرابع^(٤) . وهناك جماعة من العلماء خرجهم إقليم

- (١) الباب الرابع فى غرر فضلاء خوارزم من كتاب يتيمة الدهر للشالبي ج ٤ ص ١٩٤ - ٢٥٥ - مطبعة حجازى بمصر .
- (٢) منهم أحمد بن على الصفار الخوارزمى (ج ٤ ص ٦٧ معجم الأدباء) وأحمد بن محمود أبو الحسين السبلى الخوارزمى (معجم الأدباء ج ٥ ص ٣١ و ٣٢) وأحمد بن إبراهيم الأديبى الخوارزمى (ج ٢ ص ١٣١ معجم الأدباء) والقاسم بن الحسين بن محمد أبو محمد الخوارزمى (معجم الأدباء ج ١٦ ص ٢٣٨) .
- (٣) منهم محمد بن على بن إبراهيم الهراشى الكاتئى أبو عبد الله الخوارزمى (بنية الوعاة للسيوطى ص ٧٣) وعلى بن أحمد الحكيمى البديهى (بنية الوعاة للسيوطى ص ٣٢٨ و ٣٢٩) .
- (٤) منهم : أحمد بن يحيى بن أبى العباس (تاريخ بغداد ج ٥ ص ٢٠٤) - محمد بن عبد الله ابن إسماعيل بن خازم أبو عبد الله الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٧١) - الحارث بن سريج أبو عمر النقال (تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢١١) - داود بن رشيد أبو الفضل مولى بنى هاشم (تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٦٧) - رشيد مولى المنصور (تاريخ بغداد ج ٨ ص ٤٣٦) - مجاهد بن موسى بن فروخ أبو على الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ١٣ ص ٢٦٥ و ٢٦٦) - يوسف بن جعفر بن على أبو يعقوب الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٣١٣) - صالح ابن مالك أبو عبد الله الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣١٦) - طالب بن أحمد بن الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ٩ ص ٣٦٥) - عبد العزيز بن الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٤٥٤ و ٤٥٥) - أحمد بن محمد بن نصر المعروف بابن الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ٥ ص ١٠٨) - أحمد بن محمد بن على بن نعيم أبو سعيد الخوارزمى الضرير (تاريخ بغداد ج ٥ ص ٧١) - أبو بكر الخوارزمى المعروف بالبرقانى (تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧٣) - محمد بن موسى ابن محمد أبو بكر الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ٣ ص ٢٤٧) - محمد بن الحسن أبو الحسين صاحب الزمى خوارزمى الأصل (تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٨٦) - محمد بن جعفر بن بكر ابن إبراهيم أبو الحسين البزاز يعرف بابن الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ٢ ص ١٣٤) - محمد ابن أحمد بن إبراهيم أبو سعيد الخوارزمى (تاريخ بغداد ج ١ ص ٢٦٩) .

خوارزم جمعوا بين علم العربية والأدب والعلوم الدينية^(١) .

وهذه الخصيصة العلمية الأدبية التي تنسم بها البيئة الخوارزمية تصورها عبارة المقدسى إذ يصف أهل خوارزم : « أهل فهم وعلم وفقه وقرائح وأدب وقل إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي تقدم وزجا »^(٢) .

خصيصة أخرى تميز بها إقليم خوارزم ويعدّها الزنجشري رأس فضائلها وهو ما رزقته من المذهب السديد مذهب أهل العدل والتوحيد مع الباطنيين فيه بقوة السواعد الرامين عنه بالنبل الصوارد الشاقين فيه دقائق الشعر المطيرين عن نحر أعدائه الثغر . وذلك في كل زمان وخاصة في زماننا هذا فقد أزهى الله فيها ما شاء من السرج وأطال فيها السنة الحجج^(٣) .

وهذا ياقوت يسأل القاسم بن الحسين الخوارزمي المولود سنة خمسين وخمسمائة : قلت له : ما مذهبك . فقال : « حنفي ولكن لست خوارزمياً ، يكررها ، إنما اشتغلت ببخارى فأرى رأى أهلها » نفي عن نفسه أن يكون معتزلياً رحمه الله^(٤) .

حتى إن حكمها حاكم من أهل السنة فهم على مذهبهم لا يحولون عنه . يقول ابن بطوطة : « والغالب على مذهبهم الاعتزال لكنهم لا يظهرونه لأن السلطان أوزبك ، أميره على هذه المدينة قتلودمور من أهل السنة »^(٥) بل هم في مذهبهم

(١) ذكر الثعالبي منهم : الشيخ أبو محمد عبد الله بن محمد النامي الخوارزمي (يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٢٢) وذكر ياقوت منهم : أبو إسحاق نظام الدين المتوفى (معجم الأدباء ج ٢ ص ١٥ و ١٦) - وعلى بن عراق الصفارى أبو الحسن الخوارزمي (معجم الأدباء ج ١٤ ص ٦٣) - أبو الفتح المطرزي الخوارزمي (معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢١٢) - وترجم الجماعة منهم السيوطي في بغية الوعاة منهم : محمد بن إسحاق الخوارزمي شمس الدين الحنفي (بغية الوعاة ص ٢١ و ٢٢) - محمد بن محمود شمس الدين المعروف بالمعيد الحنفي (بغية الوعاة ص ١٠٣) - جابر بن محمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب (بغية الوعاة ص ٢١١) وهما ابن أحمد الخوارزمي (بغية الوعاة ص ٤١٠) .

(٢) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسى ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .
 (٣) الباب التاسع من مخطوط ربيع الأبرار للزنجشري (بمكتبة بلدية الإسكندرية) .
 (٤) معجم البلدان لياقوت ج ١٦ ص ٢٣٩ .
 (٥) الجزء الثالث من رحلة ابن بطوطة ص ٨ - طبع المطبعة الأهلية بباريس .

الفقهى أصحاب لأبي حنيفة القائل بالرأى والقياس^(١) .

فهذه النصوص متضادة على أن بيثة خوارج كانت مرتعاً للاعتزال .
والواقع - كما سجل التاريخ - أن الاعتزال كان آتئذ ومنذ القرن الثالث على
وجه التحديد حين ولي الحكم المتوكل سنة ٢٣٢ هـ كان الاعتزال قد بدأ يندثر
اسمه في الأقطار التي غلب عليها أهل السنة وخاصة بعد ظهور مذهب الأشاعرة
الذى اتخذ موقفاً وسطاً بين السنة والاعتزال . يقول ابن خلكان : « وكانت المعتزلة
قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم »^(٢) .

والمقدسى الذى جاب العالم الإسلامى فى القرن الرابع يحلّى هذه الحقيقة
فهو لم يجد فى الشام إلا قليلاً من المعتزلة وكانوا فى خفية^(٣) ، وفى الأندلس لم يعثر
لهم على أثر ، فقد كان أهل الأندلس جميعاً مالكيين وكانوا إذا وقعوا على معتزلى
أو شيعى ربما قتلوه^(٤) .

لكن إن خمل ذكر المعتزلة فى الأقطار التي سيطر عليها أهل السنة فقد
ذاع اسمهم فى الأقطار التي حكمها الشيعة . ذلك أن المعتزلة منذ القرن الرابع
حالفوا الشيعة الذين كان يحكم منهم بنو بويه فى فارس سنة ٣٣٢ هـ . يقول
المقريزى : « إن مذهب الاعتزال فشا تحت ظل الدولة البويهية فى العراق وخراسان
وما وراء النهر »^(٥) وكان أقوى نصير له الصاحب بن عباد الذى وزر لفخر الدولة
البويهى ثمانية عشر عاماً (٣٦٧ - ٣٨٥ هـ)^(٦) جمع حوله فيها المعتزلة
ورقاهم إلى المناصب العالية وبذل ماله فى نشر الاعتزال والدعوة له . وقد فطن
ياقوت إلى أن الناس ما دخلوا فى مذهب الصاحب وقالوا بقوله لإلارغبة فيما لديه^(٧) .

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٢٢٢ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٥٨٧ .

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ١٧٩ .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٢٣٦ .

(٥) خطط المقريزى ج ٤ ص ١٨٤ - طبعة دار الطباعة المصرية ببلاط سنة ١٢٧٠ هـ .

(٦) معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٥١ .

(٧) معجم الأدباء ج ٦ ص ٢٢٥ .

ومن ثم بدأ الاعتزال ينحسر عن البصرة وبغداد إلى المشرق . حتى إن المقدسى (ت ٣٩١ هـ) وجد أكثر الشيعة في بلاد العجم معتزلة وأكثر فقهاءهم من المذاهب الثلاثة على الاعتزال^(١) وأن العوام في الري يتابعون الرأي الاعتزالي في خلق القرآن حتى لتقع العصبية بينهم في ذلك^(٢)، وفي خوزستان ألقى معظم السكان معتزلة^(٣) .

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤٣٩ .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٣٩٥ و ٣٩٦ .

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسى ص ٤١٥ .

الفصل الثاني

نشأة الزمخشري

في بيثة خوارزم التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ولد الزمخشري بإحدى قراها (زمخشر) يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة^(١) في عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه الذي يقاس عهده في عظمته وفخامته بأزهر عهود الدولة الرومانية أو العربية حيث ازدهرت التجارة والصناعة وزهت الآداب والفنون^(٢) وكان يعاونه في إدارة الملك وزيره نظام الملك الذي «يعد أقدر وزراء الإسلام طراً بعد يحيى البرمكي»^(٣). ونظام الملك هذا كان رجلاً دينياً له مجالس يحضرها أئمة الدين من قراء وفقهاء ومحدثين، كما أنه أنشأ المدارس في الأمصار المختلفة لتعليم الحديث بل كان هو يملكه، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «كان عالماً دينياً جواداً عادلاً حليماً كثير الصفح عن المذنبين طويل الصمت؛ كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين وأهل الخير والصلاح، أمر ببناء المدارس في سائر الأمصار والبلاد وأجرى لها الجرايات العظيمة وأملى الحديث بالبلاد ببغداد وخراسان»^(٤). وعرف عن نظام الملك حبه للعلم واصطفائه التابعين من العلماء فتوفر الآباء على تعليم أبنائهم حتى يحظوا بالمناصب العالية التي كان يقسمها درجات ويرشح لكل بحسب فضله وعلمه؛ فيذكر العماد الأصفهاني أنه في أيامه نشأ للناس أولاد نجباء وتوفر على تهذيب الأبناء الآباء ليحضرهم في مجلسه ويحظوا بتقريبه فإنه كان يرشح كل أحد لمنصب يصلح له بمقدار

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٠ .

(٢) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ص ٢٧٢ - مطبعة لجنة التأليف سنة ١٩٢٨ م .

(٣) مختصر تاريخ العرب لسيد أمير على ص ٢٧٠ .

(٤) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٧٢ ط سنة ١٣٠٣ هـ .

ما يرى فيه من الرشد والفضل ومن وجد في بلدة قد تميز وتبحر في العلم نبى له مدرسة ووقف عليها وقفاً وجعل فيها دار كتب^(١) ، ومن ثم نشأ في عصره طبقات الكتاب المجيدين الذين ولوا المناصب العالية، وبسط نظام الملك عليهم حمايته فوفر لهم الرزق ووسع عليهم العيش وأمنهم غوائل الزمن لينصرفوا إلى علمهم ولا يشغلوا بما كلهم . يقول العماد الأصفهاني : « وفي عصره نشأ طبقات الكتاب الجياد وفرعوا المناصب وولوا المراتب ولم يزل بابه مجمع الفضلاء وملجأ العلماء وكان ناقداً بصيراً ينقب عن أحوال كل منهم ويسأل عن تصرفاته وخبرته فمن تفرس فيه صلاحية الولاية ولاه ومن رآه مستحقاً لرفع قدره رفعه وأعلاه ومن رأى الانتفاع بعلمه أغناه ورتب له ما يكفيه من جدواه حتى ينقطع إلى إفادة العلم ونشره وتدريس الفضل وذكره وربما سيره إلى إقليم خال من العلم ليحلّى به عاطله ويحيى به حقه ويميت باطله »^(٢) ، وهذه التوسعة على العلماء والأدباء جعلت فرضاً على الدولة ، عليها أن تؤديه إليهم أبداً ليظلوا دوماً في مأمن من عوارض الزمن . فيروى العماد : أنه - أى نظام الملك - لما وفر الأموال على الخزانة والعسكر جعل فيها لأرباب العلوم وأصحاب الحقوق حقوقاً لا تؤخر ورسوماً لا تغير وصير إحسان السلطان بين أهل العلم ميراثاً يأخذونه بقدر الفرائض ويأمنون بها من التوائب والعوارض^(٣) .

في هذا العهد إذن الذى كان يشجع العلم ويبسط حمايته على العلماء نشأ الزمخشري وعليه تفتحت عينه ونشأ في أسرة قليل ما نعرفه عنها اللهم إلا بقدر ما حكى هو عنها . نعلم عنها أنها أسرة ذات تقوى لا تخالف في أمر الدين شهر ذلك عنها وعرف بين الناس أمرها فيقول من قصيدة :

هات التى شبت ظلماً بشمس ضحى لو عارضتها لغطتها بإشراق
أستغفر الله أنى قد نسبت بها ولم أكن لحمياها بذواق

(١) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٥٤ الطبعة الأولى سنة ١٣٧٢ هـ - مطبعة دار التأليف .

(٢) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٣) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٥٦ .

ولم يذقها أبى كلا ولا أحد من أسرتى واتفاق الناس مصداق^(١)
ويكشف الزمخشري نفسه ما كان لوالدته من عاطفة رقيقة شفيقة فيروى :
« كنت فى صبأى أمسكت عصفوراً وربطته بحيط فى رجله فأفلت من يدى
فأدركته وقد دخل فى خرّوق فجذبته فانقطعت رجله فى الخيط فتألمت والدنى لذلك
وقالت : قطع الله رجلك . . كما قطعت رجلاه . . »^(٢) إن أبسط الأشياء فى حياة
الإنسان صغيراً قد تكون أشدها انطباعاً على ذاكرته وأعماقها تأثيراً فى نفسه . إن
الأم طبعاً لم تقصد أن يتحقق دعاؤها ، ولكن شاء القدر أن تقطع رجل ولدها .
وهكذا رسخت فى نفسه هذه الحادثة . فلعل أمه طبعته منذ طفولته على أن يكون
راعياً لله فى خلقه من حيوان أو إنس ولعلها كانت تذكره دوماً بعاقبة قسوته على
الطير لينشأ مفطوراً على رعاية الدين فلا يتعرض لأحد بإيذاء أو مضرة .

ثم هو ينبئنا أن والده سجين مؤيد الملك (المتوفى سنة ٤٩٤ هـ) فالزمخشري
يستعطفه لإطلاق سراح أبيه المعيل :

أكنى الكفاة مؤيد الملك الذى خضع الزمان لعزه وجلاله
ارحم أبى لشبابه ولفضله وارحمه للضعفاء من أطفاله
ارحم أسيراً لو رآه من العدى أقسام قلباً لرق لحاله
ما أطول الليل الذى يفنيه فى سهر وأطول منه ليل عياله
يشكو قيوداً قصرت من خطوه وسلاسل حكمت بضيق مجاله
ما ضر مثلك لو عفا عنه فن دأب الكرام العفو عن أمثاله
هب أنه ممن أساء فاله غلب الرزاة منك سوء فعاله^(٣)

ولا نعرف لم سجن والده ؟ وأغلب الظن أن سجنه لسبب سياسى فالزمخشري
يتوسل إلى سجنانه أن يطلقه مستشفعاً بفضل أبيه وعلمه وأنه شاب قد خلف
وراءه ذرية ضعافاً. ويحيل إلى أن الزمخشري فقد والدته طفلاً فهو لا يجرى هنا

(١) مخطوط ديوان الأدب للزمخشري ورقة ٨٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٧ .

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٧ .

لها ذكراً في استشفاعه . ومؤيد الملك هذا يصفه ابن الأثير بأنه كان سيئ السيرة^(١) والأشرار دوماً مسلطون على الأخيار وهكذا كان حظ والد الزنجشري أن وقع في يد مؤيد الملك وتعرض لأذاه . ويظهر أنه مات من أثر سجنه فقد سجن شاباً ومات وهو قريب عهد بالشباب، فالزنجشري يبكي فقد أبيه ولبا شيخ ويبكي فيه الورع والتقى والفقير من المال :

فقدته فاضلاً فاضت مآثره العلم والأدب المأثور والورعُ
أخا طباع مصفاة مناسبه ماء السحابة ما في بعضها طبعُ
وذا حقائق لا في لحظه طلبُ لغير رشد ولا في لفظه قذعُ
لم يأل ما عاش جداً في تقاه يرى أن الحريص على دنياه منخدع
صام النهار وقام الليل وهو شج من خشية الله كابي اللون ممتنع
من المروءة في علياء مُتسع صدرأ وإن لم يكن في المال متسع
قريب عهد بوخط الشيب عارضه أثر الشباب ووحف الليل متبع^(٢)

وهذا يوقفنا على أن والد الزنجشري كان - وهو الشاب - عالماً أديباً قد تمكن من نفسه الدين فهو يقوم الليل ويصوم النهار فعل المنقطع للعبادة ثم هو ذو خلق مصفى قليل المال وهذه صفات - إن اعتبرنا ما قد يكون من الشعر من مبالغة - تنبئ عن تقوى صاحبها وعزوفه عن الدنيا وهو في ريتق شبابه . ويظهر أن والده توفي وهو عنه بعيد لأن الزنجشري كان طالباً للعلم وكان والده يحس بلذعة فراقه ولكنه يتصبر ويتحمل رغبة في تعليم ابنه وتهذيبه فإن الزنجشري يقول من القصيدة السابقة عنها :

وإن مما قراني حسرة وأسى وضافني الكرب من جراه والوجع
أن عاقني شحط دار عن تفقده حتى مضى وهو من ذكراى ملتذع
يا حسرتا أننى لم أرو غلته وغلتى بزمان فيه نجمع
قد كنت أشكو فراقاً قبل منقطعاً وكيف لى بعده بالعيش متنع^(٣)

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١٠٥ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٢ .

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٢ .

ويحدثنا عن جماعة من أقاربه تخطفهم الموت واحداً إثر الآخر :
 ما للنوائب لا ينفك ديدنها غمى وهجيرها قهرى وإذلالى
 أودت بجدى وما أبقت أخى وطوت عمى وصادت بأسباب الردى خالى^(١)
 ثم يرثى خالا له آخر فيقول :

يا خير خالين إني بعد فقدكما من لوعة وأسى فى شر حالين
 وإن فرقة خال واحد حطمت ظهري فكيف إذا فارقت خالين^(٢)

وهكذا كان الزمخشري وهو لما يزل غضباً طريماً يمتحن فى صبره وخلقه
 ويسلبه الموت كل نصير أو معين فى دنياه . هذا هو كل ما استطعنا أن نعرش
 عليه من معلومات عن أسرته ؛ أسرة فقيرة تقية ظفرت بحظ من علم وأدب
 ومضى أكثرها فى حياة الزمخشري . والغموض الذى يحيط بأسرته هو عينه الذى
 يكتنف نشأته العلمية . فالزمخشري يقول - كما يروى ابن خلكان : « إنه
 لما بلغ سن الطلب رحل إلى بخارى لطلب العلم »^(٣) ، وبخارى منذ الدولة
 السامانية شهرت بالآداب فكانت كما يصفها الثعالبي مثابة المجد وكعبة الملك
 ويجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر^(٤) .
 قد يكون والده دفع به إلى هناك ليثقف العربية والأدب فيحظى بالمناصب
 التى كان يرقاها كل أديب نابغ فى عهد نظام الملك، وما من شك أيضاً فى أنه
 ثقف فيما ثقف هناك الحديث فوالده رجل دين والوزير الذى يرعى العلم يحدث
 يروى الحديث ويبنى المدارس لتعليمه؛ ولكن على كل حال الصورة الواضحة
 لنشأته العلمية تتلمذه على محمود بن جرير الضبى الأصفهاني أبو مضر النحوى
 (المتوفى سنة ٥٠٧ هـ) وهذا الأستاذ « كان يلقب فريد العصر وكان وحيد
 دهره وأوانه فى علم اللغة والنحو يضرب به المثل فى أنواع الفضائل . أقام بخوارزم

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٠٠ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١١٤ .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٠٧ .

(٤) يتيمة الدهر للثعالبي ج ٤ ص ١٠١ .

مدة وانتفع الناس بعلومه ومكارم أخلاقه وأخذوا عنه علماً كثيراً وتخرج عليه جماعة من الأكابر في اللغة والنحو، وهو الذي أدخل على خوارزم مذهب المعتزلة ونشره بها فاجتمع عليه الخلق بلحائله وتمذهبوا بمذهبه^(١) فالضبي هذا كان مبرزاً في علم اللغة والنحو حتى ليلقب بفريد العصر، وقد انتفع الزمخشري بمقدرة أستاذه في هذه الناحية وأسهم التلميذ من جانبه بنشاط عظيم في اللغة والنحو، بل إنا لنلمح في الحقيقة منهجاً طريفاً في البحث النحوي عند الزمخشري فمثلاً نراه في كتابه (المفصل) يقيم بحثه النحوي على عمد ثلاثة :

الاسم - الفعل - الحرف . ولعل هذا المنهج وهذا الأسلوب في تناول النحو ومعالجته من روح أستاذه . ثم هو ذو منهج طريف أيضاً في بحثه اللغوي فمثلاً في معجمه (أساس البلاغة) نجده يبحث في اللفظة ومعانيها حينما ترد حقيقة ثم يتعقب اللفظة عينها في استعمالاتها المجازية في الكلام وهو حريص على أن يكسب اللفظة حيوية - إن حقيقة أو مجازاً - بإيرادها في تركيب فصيح أو تعبير بليغ يجلي معناها ويلقي الضوء عليه . فهل هذه الناحية غنى أستاذه بها وورثها تلميذه ؟ أعتقد ذلك فالمعتزلة - والضبي واحد منهم - عُنوا باللغة وتناولوها تناولا يستطيعون أن يفيدوا منه في ناحيتهم الكلامية الجدلية وهم قد درسوا المنطق والفلسفة فليس عجباً أن يكون تناولهم اللغة والنحو على أساس علمي منطقي منظم . ثم الضبي معتزلي متكلم وقد كان داعية كبيراً للاعتزال في وقت انحسر فيه الاعتزال عن معظم الأقطار الإسلامية وانحجز في الأقطار التي يغلب عليها اسم الشيعة . بل إن آخر ما نسمعه عن الاعتزال نسمعه في خوارزم هذه التي نشر الضبي فيها الاعتزال . ولن نكون مبالغين تعبيراً إن قلنا إن الضبي كان شديد العصبية للاعتزال ذا حمية في نشره وإذاعته بخوارزم . وهذه الروح المتعصبة المتحمسة بثها في نفس تلميذه الزمخشري . وسنرى أن الزمخشري نشأ متحمساً للاعتزال مديعاً لتعاليمه حتى ليروى عنه أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن قل له

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ١٢٣ و ١٢٤ .

أبو القاسم المعتزلى بالبَاب^(١) بل إن خوارزم كلها دانت بمبدأ المعتزلة وكانت كلمة خوارزمى مرادفة تماماً لكلمة معتزلى - كما مر بنا - ويمكن لأن يؤثر الضبي هذا التأثير في نفوس الناس ما وهبه من خلق فاضل وأدب جملت به نفسه وعون للناس فيما ينوبهم من نوائب ويحزبهم من مصائب . فعاون علمه وخلقه على أن يؤثر هوى الناس ويبلغ غرضه منهم وأن يتأثروا هم به ويفيدوا منه العلم والأدب . وهذه الشخصية العالمة المتأدبة سراها تنعكس على نفس تلميذه الزخشرى فينشأ صورة ثانية من أستاذه، وفيها كذلك آثار العوامل الأخرى التى كونها - كما سنلم بذلك بعد . على كل حال نشأ الزخشرى نشأة أدبية لغوية كلامية وكان أثر أستاذه الضبي فيه من هذه النواحي أثراً قوياً يعترف له به الزخشرى فيقول من قصيدة في رثائه :

فقلت لطبعى هات كل ذخيرة فن أجله ما زلت أدخر الذخرا
وأبرز كرميات القوافى وغرها فنه استفدنا العلم والنظم والنرا^(٢)
وأستاذه هذا العربى صليبة قد بث في قلب تلميذه حب العرب والعصيبة
لهم فهو يمدح أستاذه بالحبب إليه بذكر أرومته العربية :

مساعى فريد الدهر مستغرباتها معطلة إن قويست كل مقياس
جرين من السيد بن ضبة فى الذرى وضبة من أدين الياس فى الراس
هم ديمة منهلة ساعة الندى وهم شهب منقضة ساعة الباس^(٣)
ثم هو يتناسى أصله الفارسى فيطعن الشعوبية ويفخر بالعرب فيقول من قصيدة عدد فيها مفاخر العرب وضروب شجاعتها وانتصارها على الفرس ؛ يقول موجهاً حديثه للشعوبية :

وقل هل فشا فى الأرض غير لسانهم لسان فشو الضوء واليوم شامس
به عجب فى أمصارها كل منبر وطنت به فى الخاقين المدارس

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٨ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٥٧ .

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٦٤ .

على ظهرها لم يخلق الله أمة
يقايس بين الناس حتى إذا انتهى
وواحدة تكفيك هاتيك حجة
أجل رسول منهم وبلسهم
وقل للشعوبيين إن حديثكم
لكم مذهب فقل يغر بمثله
تناسبهم في خصلة أو تلابس
إلى العرب المقياس طاح المقياس
بساطعها تنشق عنك الحنادس
أجل كتاب فاعتبر يا منافس
أضاليل من شيطانكم وسواوس
أشايب حتى لا الرجاء الأكاييس^(١)

ولن نقول إنه صار عربياً على الفرس في وقت خمدت فيه جذوة الشعوبية
— ولكننا نقول إنه صار إسلامياً لا هو بالفارسي المتحمس ولا بالعربي المصطنع
الحمية لهم — وهذه النظرة إنما هي نظرة من اتسع أفقه العقلي وسما تفكيره .
فلعل أسرته الديانة وبيئته المسلمة التي كانت في نزاع دوماً مع جيرانهم الكفار
نضحاً عن الإسلام — كما مر بنا قبل — ثم ما اتسم به عصر الزمخشري من نزاع
بين المسلمين والصلبيين وحروب تستعر بينهم باسم الدين إلى جانب عربية
أستاذه وخلقه— لعل هذا كله أصل في أعماق نفس الزمخشري حب العرب دينهم
وعلمهم وأوطانهم فصار إسلامياً خالصاً . فهو يؤلف كتاب المفصل في النحو
لما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب^(٢) ويؤلف كتاب مقدمة
الأدب لتعليم الفرس العربية ذلك لأن الحاجة إلى اللسان العربي سائحة في الملة
الإسلامية^(٣) .

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٦١ .

(٢) مقدمة المفصل شرح ابن يمش — ط أوربا .

(٣) مقدمة الأدب للزمخشري ص ١ وما بعدها .

الفصل الثالث رحلات الزمخشري

لم تكن الصلة بين الضبي والزمخشري صلة العلم التي تربط بين الأستاذ وتلميذه، ولكن كان الضبي يرعى تلميذه ويعينه بالمال إن احتاج ويدفع عنه الخطوب والمحن إن ألت به . يقول الزمخشري في إحدى مدحه مقراً بعون أستاذه الضبي :

إليك نظام الملك شكواى فاستمع إلى بث مجذوذ المعاش ضنكها
طريح خطوب كل يوم تنوبه بياثقة تنحى عليه ببركها
ولو لم يل الضبي عنى عراكها لغالت يد البلوى أديمى بعركها^(١)

ثم كان أستاذه الضبي هذا الصلة بينه وبين ساح الملوك ، والمعتزلة منذ بدء نشأتهم كانوا يمكنون لمذهبهم بالاتصال بالسلطان الحاكم وقد يكون أقوى مظهر لهذا اتصالهم بالمأمون الذي حمل الناس على القول بخلق القرآن . والضبي كعترلى سار سيرة أسلافه فاتصل بالوزير نظام الملك الذى ألعنا إلى فضله على العلم والعلماء ، ويظهر أن الضبي كان مقرباً من نظام الملك فإننا نرى الزمخشري في إحدى مدحه لنظام الملك يقرر هذه الصلة القوية ويستشفع بها لدى الوزير يقول :

ثنائى لصدر الملك ما عشت دايماً وإن دعائى مثله فى دوامه
جعلتهما وردى نهارى وليلى كفعل الفتى فى صومه وقيامه
وكان فريد العصر عبداً مقرباً وما أنا إلا هضبة من شامه
وقد أوجب المولى لنا فى قبيله قضاء زمام الحر بعد حمامه
فإن يرعنى المولى بحسن اصطناعه فقد تم المولى قضاء ذمامه^(٢)

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩١ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٠٤ .

ففي أغلب الظن أن الضبي هذا وصله بنظام الملك لأنه وجده خير تلاميذه في العلم ثم خير تلاميذه في الدعاية للاعتزال من بعده ؛ فأراد رفعة شأنه وأن يقوى من نفوذه بأن يصله بالسلطان. وصله أول ما وصل بنظام الملك ؛ ذلك الوزير الذي كان يقرب العلماء ويبسط عليهم حمايته ، ويغدق من أموال الدولة عليهم ويجعل ذلك حقاً مرسوماً لهم ويوليهم المناصب والدرجات العالية كفاءة علمهم وأدبهم . اتصل الزمخشري إذن بنظام الملك وقال فيه مدحاً كثيرة ونال أنعمه وتغنى بشكره . يقول الزمخشري لنظام الملك :

إليك ريبب الملك أشكر أنعماً ليمناك هطالاً على رباها
ودائمة منى لك الدعوة التي يجوب السماوات العلى مستجابها^(١)

والزمخشري في شبابه ومطلع حياته العلمية ذو آمال كبار ومطامع فسيحة المدى يستشرف بعينيه مستقبلاً ينعم فيه بسلطان ومرتبة عالية ؛ فوسع اتصالاته بكبار رجال الدولة في عهد السلطان جلال الدنيا والددين أبي الفتح ملكشاه ، ومدحهم ونال نواهم . ولكن لم يكن المال مرماه فحسب وإنما السلطان أيضاً فقد رأى أصحاب المناصب دونه في العلم ودونه في الخلق ، وتمر الأيام وآماله في المنصب هواء فتأسى وحزن وتغنى بألامه من دنيا ترفع الحقير وتضع العظيم . يقول :

خليلي هل تجدى على فضائلي إذا أنا لم أرفع على كل جاهل
من الغبن ذو نقص يصيب منازلنا أخو الفضل محقوق بتلك الفضائل
كفى حزناً أن يرغم الحلم والحجما تصدر باد طيشه غير عاقل
ومن لى بحق بعدما وفرت على أراذلها الدنيا حقوق الأماثل
كذا الدهر كم شوهاه في الخلى جيدها وكم جيد حسناء المقلد عاطل^(٢)

وتشكى إلى نظام الملك في قصائد توجهها بمدحها وختمها بشكاواه إذ يرى من دونه قد تصدروا ورقوا المناصب :

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٣ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٥ .

أحظى منقوص ولست بناقص
 فلا ترض يا صدر الكفاة بأن ترى
 ولا تجعلوني مثل همزة واصل
 فكل امرئ أماله عدد الحصى
 لأن كان امرئ في خوارزم ما أرى
 وكم قلت ألتى في وزارتك المنى
 ولم أدر أن الأذلين يرون ما
 فوقع إلى هذا الزمان فإنه

لم يتحقق أمل الزنخشرى ببلده ففكر في الرحيل عن وطنه الذي لم يبلغه
 أماله وأركبه في الحياة مركباً صعباً يقول :

أحب - بلاد الله شرقاً ومغرباً
 ولكن توامى بالكرامة غيرها
 وما منزل الإذلال للحسر منزلاً
 سأرجل عنها ثم لست براجع
 فلا كنت إن ضمت فيها ابن حرة
 إلى التي فيها غذيت وليدا
 وهذى أرى فيها الهوان عتيداً
 وإن كان عيش الحر فيه رغيداً
 وأضرب مرمى في البلاد بعيداً
 ولا عشت بين الصالحين حميداً^(١)

خاب أمله ببلده ولكن نفسه طامعة فلبجأ إلى خراسان ومدح بها جماعة
 من أصحاب الصولة والدولة منهم مجير الدولة أبا الفتح علي بن الحسين الأردستاني
 الذي استنابه تاج الدولة عنه في ديوان الطغراء والإنشاء في عهد السلطان
 جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه وصار كاتب الرسائل وكان أوجد عصره
 ونسيج وحده^(٢) ونرى الزنخشرى هنا يعرض على ممدوحه كنية اللغوية متوسلاً :
 وأصبحت كالمقصود ريش جناحه أنوه بركن كلما قمت جانح
 فعند مجير الدولة المستجار لى مداواة أدواء وأسو جرائح

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٥ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٣٧ .

(٣) تاريخ آل ساجوق للمهاد الأصفهاني ص ٥٨ .

نطاسي آمال مراض وجابر
 فليت رحالي ألقيت بفنائيه
 ويقدمح زنداً واريأ من مناقبي
 وفي شرح أبيات الكتاب لبعض ما
 وأنموذجاً أنفذت منه يضمه
 أراقب من عين الوزير اطلاعة
 لكسر مهيضات الخطوب الفوادح
 فأرتع في نعمائه غير نازح
 إذا صلحت كل الزناد بقادح
 يرى في صفاتي مجملاً أي شارح
 رجائي أرى فيه وجوه المناجح
 عليه وحسبي منه لمحمة لامح^(١)

كذلك امتدح في خراسان مؤيد الملك عبيد الله بن نظام الملك الذي تولى ديوان الإنشاء والطغراء أيام جلال الدنيا والدين السلطان أبي الفتح ملكشاه^(٢) وفيه يقول العماد الأصفهاني: « كان مصرفاً للسيف والقلم عارفاً بلغتي العرب والعجم .. ولم يكن في أولاد نظام الملك أكنى منه وكان أوحده العصر بليغاً في النظم والنثر »^(٣) امتدحه الزمخشري وما زال الأمل في المنصب يداعب خياله ، يقول لمؤيد الملك :

إليك عبيد الله أنهى شكايتي
 بحقك فازجره ومره لينتهي
 نكاية دهر يتحى بصياله
 فأمرك أمضى من مواضى نباله
 لمن عرف الناس اهتامي بحاله
 وذلك طوق في رقاب رجاله
 وأنت الذي إن قال شيئاً يريده
 فما فيهم من يشئني عن مقاله^(٤)

ويظهر أنه لم ينل شيئاً مما أمل فغادر خراسان إلى أصفهان مقر السلطان السلجوقي محمد بن أبي الفتح ملكشاه (المتوفى سنة ٥١١ هـ) « وكان عادلاً حسن السيرة شجاعاً ومن محاسن أعماله ما فعله مع الباطنية . . . فإنه رحمه الله تعالى لما علم أن مصالح البلاد والعباد منوطة بمحو آثارهم وإخراص ديارهم وملك

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٢٣ .

(٢) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٥٧ .

(٣) تاريخ آل سلجوق للعماد الأصفهاني ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٧ .

حصونهم وقلاعهم جعل قصدهم دأبه»^(١)، ونلمح هنا أن الزمخشري يمدحه بأفعاله التي خدم بها الإسلام وهو لا يسأله منصباً أو جاهاً في دولته فلعله وطد نفسه على الفشل إذ تطمع في المنصب يقول :

محمد بن أبي الفتح الذي تركت أوصاف لُكِنْتَه في كل منطق
ابن السلاطين من أبناء سلجوق وابن الغطارف منهم والغرانيق
لله من عادل من حق سيرته ونصره الحق أن يدعى بفاروق
مستوجب من جموع الشرك مبغضة محب في بني الإسلام مرموق^(٢)

وفي سنة ٥١٢ هـ مرض الزمخشري مرضاً شديداً ترك لفكره العنان أن يستعرض ما مر به من أحداث وصور في حياته، وعاهد ربه في نجواه الفكرية إن شفى من مرضته هذه التي سماها الناهكة ألا يظأ عتبة السلطان أو يمدحه أو يطمع في منصب^(٣)؛ أغذ السير إلى بغداد حيث ناظر بها^(٤) كما سمع الحديث من أبي الخطاب بن البطر^(٥) ومن أبي سعد الشفاني وشيخ الإسلام أبي منصور الحارثي^(٦)، واجتمع بالفقيه الحنفى الدامغانى^(٧) وبالشريف ابن الشجرى^(٨). ثم أراد أن يغسل ذنوبه كما صورتها له نفسه، تلك الذنوب هي الطمع في المنصب واستجداء عطيات الملوك والكبار وشاءت نفسه أن يفر من جوار الملوك حيث خابت آماله وأن يلجأ إلى جوار ملك الملوك حيث لا يخيب الراجى، فرحل إلى مكة، وفي طريقه إليها تغنى بتلك المعانى :

سيرى تماضر حيث شئت وحدتى أنى إلى بطحاء مكة سائر

-
- (١) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٨٦ .
(٣) مقامات الزمخشري ص ٨ ط سنة ١٣١٢ هـ .
(٤) المختصر في أخبار البشر لأبي الفداء ج ٣ ص ١٧ ط القسطنطينية سنة ١٢٨٦ هـ .
(٥) طبقات المفسرين للسيوطى ص ٤١ ط - أوروبا .
(٦) بنية الوعاة للسيوطى ص ٣٨٨ - مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ .
(٧) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٧ .
(٨) زهرة الألباء في طبقات الأدباء لابن الأنبارى ص ٤٧٠ - ط سنة ١٢٩٤ هـ . مصر .

للكعبة البيت الحرام مجاور
 يشكو جرائر بعدن جرائر
 لكنها مثل الجبال كبائر
 ثم نعمة وهو الكريم القادر
 وأحق من يشكو إليه الغافر
 يكسو لباس البر من هو فاجر
 إنى إلى البلد الحرام مسافر
 فالله أولى من إليه مهاجر
 بالدين دنياه فنعم التاجر
 عقد التى وكل بيع خاسر
 فلعلنى لك يا بقية عامر
 فلعلنى فى بعض خير آخسر
 فلعلنى فيها لكسرى جابر
 حتى إذا صدروا فما أنا صادر
 حتى يحمل بي الضريح القابر
 لا يطيبنى أخوة وعشائر
 ويبذل أقصى ما تمنى الزائر
 عن كل مفخرة يعد الفاخر
 ولسوف يبعثنى هناك الحاشر^(١)

حتى أنيخ وبيند أطمارى فتى
 متموذا بالركن يدعو ربه
 يشكو جرائر لا يكأثرها الحصى
 والله أكبر رحمة والله أكبر
 وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه
 فعسى المليك بفضلته وبطولته
 يا من يسافر فى البلاد منقباً
 إن هاجر الإنسان عن أوطانه
 وتجارة الأبرار تلك ومن يبع
 تالله ما البيع الربيح سوى الذى
 خربت هذا العمر غير بقية
 وعهدتى فى كل شر أولاً
 فى طاعة الجبار أبذل طاقتى
 سأروح بين وفود مكة وافداً
 بفتاء بيت الله أضرب قبتى
 ألقى العصا بين الحطيم وزمزم
 ضيفاً لمولى لا يُخيل بضيفه
 حسبي جوار الله حسبي وحده
 سأقيم ثمّ وثمّ تدفن أعظمى

وجاور الزمخشري بمكة جواره الأول حيث لى رعاية من الأمير العلوى على
 ابن عيسى بن حمزة بن وهاس وكان شريفاً جليلاً هماماً من أهل مكة وشرفائها
 وأمرائها ؛ ذا فضل غزير ، وله تصانيف مفيدة وقريحة فى النظم والنثر مجيدة^(٢)
 يقول فيه :

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤٣ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١٤ ص ٨٥ .

ومما أجل الصنع فيه إناختي بمكة مرضياً مراداً ومورداً
 لولا ابن وهاس وسابغ فضله رعيت هشيماً واستقيت مصرّداً^(١)
 وفي مكة قرأ الزمخشري كتاب سيويه على عبد الله بن طلحة اليابري
 (المتوفى سنة ٥١٨ هـ)^(٢) وليث في جواره هذا عامين - كما سنعرض لذلك بعد -
 زار فيهما كل بقعة من بقاع أرض العرب . يقول الزمخشري : « ووطئت كل تربة
 في أرض العرب »^(٣) ؛ ومما زار همدان باليمن حيث مدح هناك آل زريبر وفي
 ذلك يقول :

وكم قلت في خوارزم عند ترحلي لركائبي سيرى إلى همدانا
 لو لم أقل سيرى إلى همدان ما همدت بنا في سيرها همدانا
 وإلى الكرام بني زريبر لم تزل تجفون بنات غرير الأوطانا
 وبنو زريبر ما تزر ثيابهم إلا على الهضبات من شهلانا^(٤)
 ثم اشتاق إلى وطنه وتجدد أمل الغنى بالمنصب والمال ثانية في نفسه ؛ فرحل
 عن مكة . ولكن خاب أمله ورجع صفر اليدين ؛ فتحسر لفرقة مكة وأخذ يبكي
 رحيله عنها في قصائد كثيرة حفل بها ديوانه ؛ منها قوله :

ولى نفس شبه اللهب تصعدت به زفرة كالتار زاكية الجمر
 يذيب مضايف الشؤون بحره فتجري شآبيب الشؤون على نحري
 بكاء على أيام مكة أن بي إليها حنين النيب فاقدة البكر
 تذكرت أيامي بها فكأنني قد اختلفت زرق الأسنة في صدري
 أبيت على الصخر المبارك باكياً كما كانت الخنساء تبكي على صخر
 وحين تخطينا المناقب وارتمت بنا العيس تهوى في مسالكها القفر
 وشط بأصحابي عن الأبطح السرى ولط الجبال المشمخرات بالستر
 وقلت ألا أين الحطيم وزمزم وما لي محجوزاً عن الركن والحجر

(١) الورقة الأولى من مخطوط ديوان الأدب .

(٢) بنية الوعاة للسيوطي ص ٢٨٤ .

(٣) أساس البلاغة للزمخشري ج ١ ص ٧٨ مادة (ت ر ب) ط . دار الكتب سنة ١٣٤١ هـ

(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١١١ .

صفرت وراء الغور صفرة مفلس رأى يده صفراً من البيض والصففر
وقلت لقلبي قد ملكتك مرة فما أنت إلا طائر طار عن وكر^(١)
ولم يجد إلا نفسه لينحى عليها باللائمة وإلا الحزن ليكابده والدمع ليذرفه
فهو الفائل :

أبتاع بالفوز الشقاوة خاسراً وأستبدل الدنيا الدنية بالأخرى
إذا خطرت بالبال ذكرى إناختي على حرم الله استفتزني الذكرى
أكابد ليلاً كالليلي وحسرة ودمعاً غزير المستقى غائر المجرى
وأدعو إلى السلوان قلباً جوابه لداعيه مهراق من المقلة العبرى
وما عذر مطروح بمكة رحله على غير بوس لا يجوع ولا يعرى
فما فرّ عنها يبتغى بدلاً لها وربك لا عذراً وربك لا عذراً^(٢)

وحين وصل إلى وطنه خوارزم كان الزمن قد ابتسم له ، ذلك أنه كان في خوارزم
بيت ملك يؤمسه محمد بن أنوشكين الملقب بخوارزمشاه (المتوفى سنة ٥٢١ هـ)
وكان قبل والياً على خوارزم في عهد بركياروق ، « وقد قصر خوارزمشاه أوقاته
على معدلة ينشرها ومكرمة يفعلها وقرب أهل العلم والدين فازداد ذكره حسناً
ومحله علواً . ولما ملك السلطان سنجر خراسان أقر محمداً خوارزمشاه على خوارزم
وأعمالها فظهرت كفايته وشهامته فعظم سنجر محله وقدره »^(٣) ، ويظهر أن الزنخشي
نال عنده حظوة فإنه يمدح فيه رعاية العلم والأدب يقول :

وقد خدمت بشيئين استوى بهما أمر الملوك ودان السيف والقلم
هذا لكتب الأيادي وأصل جذب هذا لكتب الأعدى صارم خدم
للكتب هذا وهذا للكتائب في يوى ندا وردى داع ومنتقم
صرب هذا يبارى في مهابته صلبل ذلك فقد هابتها البهم
أى الملوك تلاقى في مجالسه غرائب العلم والآداب والحكم^(٤)

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤١ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٤١ .

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٩٢ و ٩٣ .

(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٠٧ .

فلما توفي محمد خوارزمشاه ظل الزمخشري على مكانته عند ابنه أئسنز (المتوفى سنة ٥٥١ هـ) «الذى مد ظلال الأمن وأفاض العدل وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وقصد بلاد الأعداء وبأشر الحروب ولما ولى بعد أبيه قربه السلطان سنجر وعظمه واعتضد به واستصحبه معه في أسفاره وحروبه فظهرت منه الكفاية والشهامة فزاده تقدماً وعلواً»^(١) وبأمر أئسنز هذا حررت نسخة من كتاب الزمخشري (مقدمة الأدب) لخزانة كتبه. وفي مقدمة هذا الكتاب يحدثنا الزمخشري عن فضل ممدوحه على الأدب والعلم ورعايته لأهلها - وما من شك في أنه عن نفسه يحكى الرعاية به والعناية - يقول: «... والذى اصطفاه الله في زماننا لنصرة الأدب وقذف في قلبه الرغبة في كلام العرب الأمير الأجل الأسفهلار بهاء الدين علاء الدولة أبو المظفر أئسنز بن خوارزم شاه أدام الله علاه ونصر لواءه؛ فغاية لذته في بهاء الدين مجالسته الأفاضل وقصارى لهوه في منادمته الأمائل ولا يزال ظل كرمه الواسع عليهم ممدوداً وجناهم بإنعامه الفائض مجوداً وصلاته وخلعه مترادفة عندهم متوالية رائحة إليهم غادية وقد رسم لى أمره العالى زيد علواً بتحرير نسخة من كتاب (مقدمة الأدب) لخزانة كتبه المعمورة ففعلت على رسمه وجعلت الكتاب موسوماً باسمه لأن هذا الكتاب قد أصاب قبولا من القلوب وهب في البلاد مهب الصبا والخبز فأردت ألا يزال مذكوراً في كل مكان وزمان يكون اسمه العزيز جارياً على كل لسان»^(٢).

وأحس الزمخشري من نفسه الكبر وعاوده الحنين إلى الجوار بمكة وألحت نفسه عليه في ذلك ولم يقر لها قرار حتى عاد بعد إلى مكة وفي طريقه إليها مر بالشام وامتدح صاحب دمشق تاج الملك المتوفى سنة ٥٢٦ هـ^(٣) الذى قتل من الباطنية ستة آلاف نفس وجمع العرب والتركمان لملاقاة الفرنج الذين حاصروا

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٩٢ و ٩٣ .

(٢) مقدمة الأدب للزمخشري ص ١-٣ ط . أوربا سنة ١٨٤٣ م .

(٣) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤٣ .

دمشق فهزيمهم شر هزيمة سنة ٥٢٣ هـ^(١). ثم امتدح الزمخشري من بعده ابنه شمس الملك الذي ولي بعد أبيه تاج الملك سنة ٥٢٦ هـ^(٢).

وأخذ السير إلى مكة حيث دخلها سنة ٥٢٦ هـ. وجاور بها جواره الثاني ثلاث سنين ألف فيها تفسيره (الكشاف)، وفي جواره بمكة مرتين ومدنه يقول:

فجاورت ربي وهو خير مجاور لدى بيته المحرم عاكفا
أقمت بإذن الله خمسا كواملا وصادفت سبعا بالمعرف واقفا
وتم لي الكشاف ثم يبلة بها هبط التتريل للحق كاشفا
وزرت ابن عباس بوج ونمت يدى عند رأس الخبر منه طرائفا^(٣)

وفي جوار الزمخشري الثاني بمكة لقي من ابن وهاس ما عوده منه ومن صحبه من كرم الوفاة والإجلال.

وفيما لقيه الزمخشري من كرم ابن وهاس وحفاوة صحبه به تقول مدحته:

بمكة آخيت الشريف وفتية تواليه من آل النبي غطارفا
وكنت عليهم من أعز نفوسهم أعز وكل كان صنواً ملاطفا
لكل موال لي ولياً مناصحاً لكل معاد لي عدواً مكاشفا
يتابع أن نوظرت ردهاً لشاغب وينهض أن ذوكرت ردهاً مكانفا
متى أقبل العلامة انتفضوا له وحيوه حيا الله تلك المعارفا
وهشوا إليه باسطين أسرة بماء الحياء الهاشمي نواطفا
كركب عطاش بعد يأس تباشروا بأن أبصروا ذا هيدب متكائفا
وكان ابن وهاس بلنجي فارساً كما تفعل الأم الحفية لاحفا
رأيت مع الإجلال منه تكروماً كما صاب ربي الحيا مترادفا

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٢٢٤ و ٢٢٥. وقصيدة مديحه ورقة ٣٨ مخطوط ديوان الأدب.

(٢) تاريخ الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٢٤٣ وقصيدة مديحه بمخطوط ديوان الأدب ورقة ٩٩.

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٩.

على باب أجياد بنى لى منزلا
وأنفق فى إتمامه من تلاده
ويظهر أن ابن وهاس كان أيضاً يناصر الزمخشرى رأيه الاعتزالى . فالزمخشرى
يقول فى إحدى مدحه له :

على بيكرُ ذى المجدين عيسى
علا الأشراف كلهم وما من
تقول إذا بدا مَلَاكُ كريم
وقل يا أمنع الثقلين جاراً
بعيد المستلاذ كليل ظفر
غضبت له وذلك نبض عرق
زارت وراء دين العدل زاراً
فقد أشجيتهن بكل عظم
ومن يغضب لدين الله يجمع
وليس الجبر والتشبيه إلا
فقم بالعدل والتوحيد فيه
وبإشارة ابن وهاس جمع الزمخشرى منظوماته فى (ديوان الأدب) يقول فى
مقدمة الديوان : « . . .

وما أجل الصنع فيه إناختى
ولولا ابن وهاس وسابغ فضله
بمكة مرضيا مراداً وموردا
رعيت هشياً واستقيت مصردا

. . . ولولا ذاك وأن أمرك موسوم أخذعاى بوجوب امثاله موضوع حزاي
لاحتذاء مثاله للقيت منى حين اقترحت على جمعى نفاسات قريحتى وطلبت
إلى الإسجاح بمجاجات سجيحتى ركناً عن الإجابة فروراً وجلداً من المساعدة
به مقشعراً ولصادفت دونه باباً مرتجماً وعالجت بين يديه قفلا عمراً مستنجاً» (٣).

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقنا ٧٩ و ٨٠ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١١٦ .

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقنا ١ و ٢ .

وبإشارته أيضاً ألف الزمخشري تفسير الكشاف - موضوع بحثنا^(١) .

وعاود الزمخشري الحنين إلى وطنه فاتخذ سمته إليه وفي طريقه إليه مر ببغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسة وقرأ بعض كتب اللغة على أبي منصور الجواليقي . يقول أبو اليمن زبيد بن الحسن الكندي الملقب تاج الدين (المتوفى سنة ٦١٣ هـ) : « كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم بالعربية في زمانه وأكثرهم اكتساباً واطلاعاً على كتبها وبه ختم فضلاؤهم . . . قدم علينا بغداد سنة ثلاث وثلاثين وخمسة و رأيتُه عند شيخنا أبي منصور الجواليقي مرتين قارئاً عليه بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها لأنه لم يكن له على ما عنده من العلم لقاء ولا رواية »^(٢) . ثم بلغ وطنه حيث وافته منيته بمرجانية خوارزم سنة ٥٣٨ هـ^(٣) ؛ وقد رأى قبره الرحالة ابن بطوطة^(٤) .

-
- (١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٣ - الطبعة الأولى بالمطبعة الشرقية سنة ١٣٠٧ هـ .
 (٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٤٥ .
 (٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١١٠ .
 (٤) رحلة ابن بطوطة ص ٦ الجزء الثالث .

الفصل الرابع نشاطه العلمي

أفرغ الزرخشري شطراً كبيراً من حياته للعلم والتأليف، ذلك لأنه منذ أول الأمر ابتعد عن كل مشغلة : اعتزل النساء ونسلهن يقول :

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد
رأيت أباً يشقى لتربية ابنه
أراد به النشء الأغر فما درى
أخو شقوة ما زال مركب طفله
لذاك تركت النسل واخترت سيرة
أصادف من لا يفضح الأم والأبا
ويسعى لكي يدعى مكبناً ومنجبا
أبوابه حجراً أم يعالیه منكببا
فأصبح ذاك الطفل للناس مركبا
مسيحية أحسن بذلك مذهبا^(١)

وهو أيضاً القائل : « لا تخطب المرأة لحسنها ولكن لحسنها فإن اجتمع الحصن والجمال فذاك هو الكمال وأكمل من ذلك أن تعيش حصوراً وإن عمرت عصوراً^(٢) . وكان في مذهبه هذا صارماً لا يجيد عنه حتى لامة قومه فيه :

يموه قومي بالتنصح لومهم
ياوموني أني نأيت بيجاني
وإن عناء لومهم والتنصح
عن النسل ألوى عنه رأسي وأجمح^(٣)

ولكنه وهب نفسه للعلم فالتلاميذ والتأليف خير عنده من النسل :

وحسبي تصانيفي وحسبي رواياتها
بنين بهم سيقت إلى مطالبي^(٤)

ويظهر أنه أخذ العظة من والده وكان كثير العيال فقيراً فاختر حياة يهدأ فيها ويعكف على نفسه وعلمه لا يشغله شاغل أو يعوقه معوق . ثم هو فاقد

(١) مخطوط ديوان الأدب ورقة ١٨ .

(٢) المقالة السابعة والتسعون من كتاب أطواق الذهب في المواعظ والخطب للزرخشري ص ١٠٧

مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨ هـ .

(٣) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٢٦ .

(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٩ .

لإحدى رجلية^(١) ولا بد أن لذلك أثره في نفس الزمخشري ؛ فهو ضعيف يريد أن يتقوى ؛ فاقد لأحد أعضائه فبغيته التعويض ومن ثم اتجهت طاقته للعلم يأخذ منه مستفيداً ويعطى الناس مفيداً . كان للعلم محرراً فدرس الكلام وعلومه والحديث والتفسير وأدواته واللغة والنحو والأدب وفنونه وهكذا ألم بثقافة واسعة المدى . ويفخر بما ناله من حظ في ذلك جميعه يقول :

ترانى فى علم المنزل عالماً وما أنا فى علم الأحاديث راسفا
فلسنة البيضاء فى مناجح ويغنى كتابُ الله منى المعارفا
وما أنا من علم الديانات عاطلا بأحسن حلّى لم يزل لى شانفا
فكم قد وحت يمتأى منه دفاتراً وكم قد وعت أذناى منه وطائفا
وما للغات العرب مثلى مقوم أبى كل ندب متقن أن يخالفا
وبى يستعبد النحو من أن يسوسه نهى لم يجدها الذائقون حصائفا
فقل أين خلى سيبويه كتابه يقل حجر جار الله مأواى حالفا
وما فى رواة الكتب راوية له سوى واحد فانظر فلست مصارفا
وعلمنا المعانى والبيان كلاهما أرف إلى الخطاب منه وصائفا
وعلم القوافى والأعاريض شاهد بفسحة خطوى فيه إذ كنت زاحفا
أقرت بى الآداب أصلا لها ومن رأى مشرفيات جحدن المشارفا
وديون منظوى يريك بدائعاً وديوان منشورى يريك طرائفا^(٢)

وهكذا انقطع الزمخشري للعلم وأخلص له فجل فيه وذاع فضله وعظم في أعين الناس حتى أثنى عليه العلماء كلهم ممن ترجموا له . يقول فيه السمعاني :
« كان يضرب به المثل فى علم الأدب والنحو »^(٣) ؛ ويقول ابن خلكان :
« كان إمام عصره غير مدافع تشد إليه الرحال فى فنونه »^(٤) ؛ وفيه يقول ابن الأبارى : « كان نحوياً فاضلاً »^(٥) . ويحكى ابن الأبارى رأى ابن السجرى

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٧ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٨ .

(٣) الأنساب للسمعاني ص ٢٧٧ - ط ليدن سنة ١٩١٢ م .

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ١٠٧ .

(٥) نزهة الألباء فى طبقات الأدباء ج ١ ص ٤٦٩ .

اللغوي في الزمخشري فيقول : « وقدم (أى الزمخشري) إلى بغداد للحج فجاءه شيخنا الشريف ابن الشجري مهتماً له بقدمه فلما جالسه أنشده الشريف :
 كانت مساءلة الركبان تخبرني عن أحمد بن دؤاد أطيب الخبر
 حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى
 وأنشده أيضاً :
 وأستكبر الأخبار قبل لقائه فلما التقينا صغر الخبر الخبر
 وأنى عليه » (١) .

ويقول عنه ياقوت : « كان إماماً في التفسير والنحو واللغة والأدب واسع العلم كبير الفضل متفنناً في علوم شتى » (٢). ويذكر الأمير أبو الحسن علي بن عيسى بن حمزة بن وهاس الحسنى العلوي طيران اسم الزمخشري في الآفاق ، يقول :
 وكم للإمام الفرد عندي من يد وناهيك مما قد أطاب وأكثر
 أضحى العزمة البيضاء والهمة التي أنافت بها علامة العصر والورى
 جميع قرى الدنيا سوى القرية التي تبوأها داراً فداء زمخشرا
 وأحرى بأن ترهى زمخشري بامرئ إذا عد في أسد الشرى زمخ الشرا
 فلولا ما طن البلاد يذكره ولا طار فيها منجداً ومغورا
 فليس ثنها بالعراق وأهله بأعرف منها بالحجاز وأشهر (٣)

ويقول الزمخشري عن نفسه :

ألم تر أنى حيثما كنت كعبة يحفون بي كالطائفين طوائفا
 فشرقهم يهوى إلى النور قابساً وغربهم يسعى إلى البحر غارفا (٤)

ويقول أيضاً :

« وإنى في خوارزم كعبة الأدب » (٥)

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء ج ١ ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ١٢٦ .

(٣) معجم البلدان لياقوت ج ٢ ص ٩٤٠ .

(٤) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٧٩ .

(٥) مخطوط ديوان الأدب ورقة ٨ .

وقد كون الزمخشري مدرسة علمية ينشر فيها علمه ويبيث تعاليمه، تلمذ له فيها جماعة . يقول السمعاني : « وظهر له جماعة من الأصحاب والتلامذة، وروى عنه أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويل بطبرستان وأبو المحاسن عبد الرحيم ابن عبد الله البزار بأبيورد وأبو عمرو عامر بن الحسن السمسار بزمخشر وأبو سعد أحمد بن محمود الشاقى بسمرقند وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم وجماعة سواهم»^(١) وتلمذ له محمد بن أبي القاسم بايجوك أبو الفضل البقالى الخوارزمى الآدمى الملقب زين المشايخ النحوى الأديب كان إماماً فى الأدب وحجة فى لسان العرب أخذ اللغة وعلم الأعراب عنه وجلس بعده مكانه وسمع الحديث منه ومن غيره^(٢)، وتلقى العلم عنه يعقوب بن على بن محمد بن جعفر أبو يوسف البلخى ثم الجندلى أحد الأئمة فى النحو والأدب وازمه^(٣)، وأخذ العلم عنه على بن محمد بن على بن أحمد ابن مروان القمرانى الخوارزمى أبو الحسن الأديب يلقب حجة الأفاضل وفخر المشايخ وفيه يقول صاحب تاريخ خوارزم : القمرانى حجة الأفاضل سيد الأدباء قدوة مشايخ الفضلاء المحيط بأسرار الأدب والمطلع على غوامض كلام العرب قرأ الأدب على فخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشري فصار أكبر أصحابه وأوفرهم حظاً من غرائب آدابه . . . سمع الحديث من فخر خوارزم . . . وكان يذهب مذهب رأى والعدل^(٤)، فهذا النص يوقفنا على أن الزمخشري كما كان يعلم تلاميذه الأدب واللغة والحديث كان يبيث فيهم أيضاً ثقافته الكلامية ومعتقده الاعتزالى . وقرأ عليه الموفق بن أحمد بن أبى سعيد إسحاق أبو المؤيد المعروف بأخطب خوارزم وكان متمكناً فى العربية غزير العلم فقيهاً فاضلاً أديباً شاعراً^(٥)، وتلمذ له كذلك على بن عيسى بن حمزة بن وهاس أبى الطيب من ولد سليمان بن حسن

(١) الأنساب للسمعاني ٢٨٨ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ٥ .

(٣) معجم الأدباء لياقوت ج ٢٠ ص ٥٥ .

(٤) معجم الأدباء لياقوت ج ١٥ ص ٦١ و ٦٢ و ٦٥ .

(٥) بنية النوعة للسيوطى ص ٤٠١ .

ابن علي بن أبي طالب عليه السلام وكان شريفاً جليلاً هماماً من أهل مكة وشرفائها وأمرائها وكان ذا فضل غزير وله تصانيف مفيدة وقرينة في النظم والنثر مجيدة قرأ على الزمخشري بمكة وبرز عليه وصرفت أعنة طلب العلم إليه^(١).

كما طلب الإجازة والرواية من الزمخشري جماعة من العلماء فأم المؤيد زينب بنت الشعرى (ت ٦١٥ هـ) كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وإجازة منهم العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري^(٢)؛ والحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي^(٣) رحمه الله تعالى كتب إلى الزمخشري من الإسكندرية وهو يومئذ مجاور بمكة يستجيزه في مسموعاته ومصنفاته فرد جوابه بما لا يشقى الغليل فلما كان في العام الثاني كتب إليه أيضاً مع الحجاج استجازة أخرى اقترح فيها مقصوده ثم قال في آخرها : ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة فالمسافة بعيدة . وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشقى الغليل وله في ذلك الأجر الجزيل^(٤) . وطلب الإجازة من الزمخشري رشيد الدين الطواط الأديب الكاتب الشاعر ، وكان من نوادر الزمان وعجائبه وأفراد الدهر وغرائبه ، أفضل زمانه في النظم والنثر وأعلم الناس بدقائق كلام العرب وأسرار النحو والأدب طار في الآفاق صيته وسار في الأقاليم ذكره ، وكان ينشئ في حالة واحدة بيتاً بالعربية من بحر وبيتاً بالفارسية

(١) معجم الأدياء لياقوت ج ١٤ ص ٨٥ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٤٧ .

(٣) ترجم له ابن خلكان في الوفيات ج ١ ص ٣٧ و ٣٨ قال : أحد الحفاظ المكثرين رحل في طلب العلم ولقى أعيان المشايخ وكان شافعي المذهب ، ورد بغداد واشتغل بها على الكيا أبي الحسن على الهراسي في الفقه وعلى الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي النوى وروى عن أبي محمد جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأمثال وجاب البلاد وطاف الآفاق ودخل ثغر الإسكندرية سنة إحدى عشرة وخمسة وأقام به وقصده الناس من الأماكن البعيدة وسمعوا عليه وانتفعوا به ولم يكن في آخر عصره مثله وبنى له العادل أبو الحسن علي بن السلار وزير الظاهر العبيدي صاحب مصر سنة ست وأربعين وخمسة مدرسة بالثغر المذكور وفوضها إليه وهي معروفة به إلى الآن .

(٤) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٨ .

من بحر آخر ويمليهما معاً^(١). ويذكر براون أنه كان كاتباً وشاعراً لأتسر الذي قامت على أكتافه الدولة الخوارزمية^(٢) وتوفى سنة ٥٧٨ هـ^(٣). وقد كتب رشيد الدين الطواط إلى الزنجشري رسالة يستجيزه فيها يقول: «إن حضرة جبار الله أوسع من أن تضيق على راغب في فوائده وأكرم من أن تستقل وطأة طالب لعوائده، ومع هذا أرجو إشارة تصدر من مجلسه المحروس إما بخطه الشريف فإن في ذلك شرفاً يدوم لى مدى الدهور والأيام وفخراً يبقى على مر الشهور والأعوام؛ وإما على لسان من يوثق بصدق مقاله ويعتمد على تبليغ رسالته من المنخرطين في سلك خدمته والرائعين في رياض نعمته ورأيه في ذلك أعلى وأصوب»^(٤). وقد أجازته الزنجشري؛ يقول الطواط من رسالة أرسلها يهنيء الزنجشري بالعيد: «ولقاء سيدنا جبار الله أدام الله مجده لنا معشر خدمه والمرتضعين درة فضله وكرمه عيد لا يزال العيد له كتصحيفه باقية محاسنه دائمة ميامنه . يهدى كل ساعة إلى أبصارنا نوراً وإلى أرواحنا راحة وسروراً»^(٥). وبعد وفاة الزنجشري كانت له في نفس تلميذه مكانة الإجلال والتقدير حتى إنه ليبغى تصحيح ما حرّف من بعض مؤلفات أستاذه . يقول الطواط من رسالة لبعض الأفاضل أرسلها: «وقعت في يدي نسخة من كتاب أساس البلاغة وقد أرى فيها من التصحيقات ما لا أصادف من ديني فسحة في إغفاله فإن تفضل سيدنا أدام الله أيامه بإنفاذ المجلدة الأولى من النسخة المقروءة على الإمام السعيد جبار الله قدمس الله روحه لأقابل سقيم بصحيحه وأبالغ في تقويمه وتصحيحه حاز مني شكراً طويلاً الذليل وثناء متدافع السيل»^(٦).

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ١٩ ص ٢٩ .

(٢) Literary History of Persia p. 309

(٣) نفس المصدر السابق ص ٣٣١ .

(٤) ج ٢ من مجموعة رسائل رشيد الدين الطواط ص ٢٨ و ٢٩ - ط المعارف سنة ١٣١٥ هـ .

(٥) نفس المصدر السابق ص ٥٩ و ٦٠ .

(٦) المصدر السابق ص ٦٧ ج ٢ .

هؤلاء تلاميذه ممن أجاز وعلم وأبناؤه الذين استغنى بهم عن النسل والذرية منحهم حبه ووده ورغبهم في علمه بما رزقه من خلق فاضل وشخصية عالمة تدعن للحق مؤمنة وتدفع عن المسلمين الضر والخطب . فيحدثنا رشيد الدين الوطواط عن خلق الزمخشري العلمي الذي تكشف له فيما كان بينهما من حوار علمي يقول : « وقد جرى بيني وبينه في حياته وأوقات راحاته مما يتعاقق بفنون الأدب وأقسام علوم العرب مسائل أكثر من أن يحصى عددها أو يستقصى أمدها ، رجع فيها إلى كلامي ونزل على قضيتي وأحكائي فالسعيد من إذا سمع الحق سكنت شقاشق بلحاجه وسكنت صواعق حجاجه - ثم يعدد هذه المسائل . . إلى أن يقول - : وإنما ذكرت هذا القدر اليسير ليعلم فتیان هذه الخطة أن هذا الإمام كان صبوراً على مرارة الحق وحرارة الصدق مع أنه ربُّ هذه البضائع وصاحبُ هذا الوقائع ^(١) فهو مع الحق ولو على نفسه .

ويكشف لنا الزمخشري نفسه عن جانب من خلقه الجميل ونفسه التي صفحتها حوادث الأيام فرفعتها فوق الماديات في رسالته التي بعث بها إلى الخافظ السلني : « ولا يغرنكم قول فلان في ولا قول فلان - وعدد جماعة من الشعراء والفضلاء مدحوه بمقاطيع من الشعر وأوردها كلها . . فلما فرغ من إيرادها كتب - فإن ذلك اغترار منهم بالظاهر المموه وجهل بالباطن المشوه ولعل الذي غرهم منى ما رأوا من حسن النصيح للمسلمين وتبليغ الشقة على المستفيدين وقطع المطامع عنهم وإفادة المبار والصنائع عليهم وعزة النفس والربء بها عن السفاسف الدنيايات والإقبال على خويصتي والإعراض عما لا يعنيني فجملت في عيونهم وغلظوا في ونسبوني إلى ما لست منه في قبيل ولا دير ^(٢) . وهكذا يكون العلماء حقاً خلق قبل علم ، وأدب قبل ثقافة ، ونفس تصفو ولا تجفو .

هذا عن تلاميذه، أما عن آثاره فقد ذكر المترجمون لحياة الزمخشري أن له نحو خمسين مؤلفاً في فنون الآداب واللغة والترجمة والتفسير والحديث والفقه

(١) ص ٣٧٨ - ٣٨٠ من رسائل البلاء^١ نشرها كرد على - ط سنة ١٣٦٥ هـ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٨ .

يعددها ياقوت في التفسير ألف كتابه (الكشاف) موضوع بحثنا ، وفي الحديث ألف كتاب الفائق في غريب الحديث^(١)، وفي الفقه ألف الرائض في الفرائض والمنهاج في الأصول، ثم في علم الجغرافيا ألف المعجم الجغرافي الذي سماه (كتاب الجبال والأمكنة)^(٢)، وفي الأدب ألف كتباً عدة ؛ ففي أدب الترجمة ألف كتاب متشابه أسماء الرواة ، وكتاب شقائق النعمان في حقائق النعمان في مناقب الإمام أبي حنيفة ، وفي أدب المواعظ أنتج كتاب الكلم النوابع في المواعظ وكتاب أطواق الذهب في المواعظ^(٣)، وكتاب نصائح الكبار، وكتاب نصائح الصغار^(٤). وكتاب مقامات في الوعظ^(٥)، وكتاب الرسالة الناصحة، وكتاب شرح مقاماته . وألف مجموعة من الكتب في الأدب الخالص - شعراً ونثراً - منها ربيع الأبرار في الأدب والمحاضرات^(٦) وكتاب تسليية الضرير ، وديوان خطب، وديوان رسائل وديوان شعر^(٧)، وكتاب شافي العي من كلام الشافعي . وفي النحو ألف كتاب نكت الأعراب في غريب الإعراب في غريب إعراب القرآن، وكتاب النموذج في النحو^(٨)، وكتاب المفصل في النحو أيضاً^(٩) وألف كتاب المفرد والمؤلف في النحو^(١٠)، وكتاب الأمل في النحو . وألف حاشية على المفصل في النحو، ثم شرح المفصل في النحو، وشرح كتاب سيبويه ، كما ألف المحاجة و متمم مهام أرباب الحاجات في الأحاجي والألغاز^(١١) والمفرد والمركب . وفي اللغة له مؤلفات عدة منها كتاب نهميم العربية، وكتاب أساس البلاغة^(١٢)، وكتاب جواهر اللغة،

(١) مطبوع .

(٢) مطبوع .

(٣) مطبوعان .

(٤) نصائح الصغار - مخطوط ببرلين والمتحف البريطاني .

(٥) مطبوع .

(٦) مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية .

(٧) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة باسم (ديوان الأدب) .

(٨، ٩) مطبوعان .

(١٠) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(١١) مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(١٢) مطبوع .

وكتاب الأجناس، وكتاب مقدمة الأدب في اللغة^(١)، وكتاب الأسماء في اللغة، وكتاب القسطاس في العروض^(٢)، وكتاب سواثر الأمثال، وكتاب المستقصى في الأمثال^(٣)، وكتاب أعجب العجب في شرح لامية العرب^(٤)؛ وله غير ذلك مؤلفات ذكرها ياقوت ولا ندرى من أسمائها موضوعاتها كما أن ياقوت نفسه لم يذكر كل مؤلفات الزمخشري^(٥).

وهذه المؤلفات إن دلت على شيء فعلي أن حياة الزمخشري العلمية كانت حياة خصبة مليئة حيوية وإنتاجاً، وقد شغل الزمخشري في بدء حياته العلمية بالتأليف اللغوي والنحوي واتجه إليهما، بل إن الغالب على تأليفه كما نلمح فيما مر بنا - التأليف اللغوي والنحوي فراه في إحدى مدحه - كما سبق - يهدى كتابيه « شرح أبيات الكتاب » و « الأنموذج » لمجبر الدولة أبي الفتح علي بن الحسين الأردستاني الذي كان نائباً في ديوان الطغراء والإنشاء في عهد السلطان جلال الدنيا والدين أبي الفتح ملكشاه . ولعل من أول ما ألفه أيضاً كتاب « المستقصى في أمثال العرب » وهناك حادثة يرويها ياقوت الحموي قد تحدد لنا شيئاً ما تاريخ تأليف الكتاب - وإن لم نقطع في هذا برأى - يروي ياقوت قائلاً : وسمعت في المفاوضة ممن لا أحصى أن الميداني لما صنف كتاب الجامع في الأمثال وقف عليه أبو القاسم الزمخشري فحسده على جودة تصنيفه وأخذ القلم وزاد في لفظة الميداني نوزاً فصار النميداني ومعناه بالفارسية الذي لا يعرف شيئاً فلما، وقف الميداني على ذلك أخذ بعض تصانيف الزمخشري فصير ياء

(١) مطبوع .

(٢) القسطاس في العروض . مخطوط بربلين وليدن .

(٣) المستقصى في الأمثال مخطوط بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٤) مطبوع .

(٥) من مؤلفات الزمخشري التي ذكرها ياقوت في معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٣٣ - ١٣٥ :

مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة . الأصل لأبي سعيد الرازي . وزهة المستأنس مخطوط بآيا صوفيا - رسالة المسامة ومعجم الحدود، وضالة الناشد، وكتاب عقل الكل وروح المسائل ، ورسالة الأشرار ، وديوان التمثيل ويذكر بروكلمان أن للزمخشري رسالة في كلمة الشهادة وأخرى في نص العشرة والقصيدة البعوية وأخرى في مسائل الغزالي وكلها مخطوطات بربلين .

نسبته توناً فصار الزمخشري معناه مشرى زوجته^(١) . إذن كان هناك تحاسد بسبب التأليف في فن الأمثال بين الزمخشري والميداني . والميداني توفي سنة ٥١٨ هـ . والبادئ بالحسد كما يروى الخبر هو الزمخشري ، فعمل مؤلفه في الأمثال كان بعد مؤلف الميداني ، وإذن يكون قد ألف قبل سنة ٥١٨ هـ وفي حياة الميداني خاصة ، والزمخشري يحدثنا عن أثر التأليف المحدث في الناس بعد التأليف القديم ويعيد في هذا ويبدى فقد يشير بهذا إلى غلبة الميداني عليه في هذا الفن وأنه هو البادئ بالتأليف فيه ؛ يقول الزمخشري في مقدمة كتابه « المستقصى في أمثال العرب » : « وكأني بالعالم المنصف قد اطلع عليه فارتضاه وأجال فيه نظرة ذى علق ولم يلتف إلى حدوث عهده وقرب ميلاده لأنه إنما يستعجيد الشيء ويستزله بلجودته وردائه في ذاته لا بقدمه وحدثه وبالجاهل المشط قد سمع بآ فسارع إلى تمزيق فروته وتوجيه المعاب إليه ولما يعرف نبعه من غربه ، ولا صبره من ضربه ولا عجم عوده ولا نفص تهايمه ونجوده والذي غره منه أنه عمل محدث لا عمل قديم وحسب أن الأشياء تنتقد أو تبهرج لأنها تليدة أو طارفة والله در من يقول :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لثامها^(٢)

وليلدحيث يقول :

فإن تك داعررث فواها فإنى وائق بينى زياد^(٣)

ويظهر أن اتجاهه الأدبي اللغوي هذا كان اتجاهاً عاماً في التأليف أول حياته . ثم غلب على تأليفه الأدبي اللغوي عاطفة دينية دافقة بعد أن اهتزت نفسه بما جرى لها من أحداث ، وبعد أن خابت آماله فيما أمل ، وأكسبته صلته بحكام البلاد الإسلامية وأولى الأمر فيها معرفة بحقيقة ما عليه البشر من نوازع وميول ، وبعد تطوافه في مختلف الأقطار الإسلامية وما شاهده في حياته من رؤى

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٥ ص ٤٧ .

(٢) مخطوط المستقصى في أمثال العرب للزمخشري ورقة ٢ .

حوادث. وهو إلى جانب هذا كله من أسرة تقيّة دينة بل من بيئة دينية تحافظ على الدين ثم كانت سنة قد بلغت الخامسة والأربعين . فكان لذلك كله أثره في صفاء نفسه ورقة شعوره وسمو تفكيره . وقد حدثت حادثة مباشرة غيرت مجرى حياته وصرفته عن الدنيا والأمانى فيها . يقول الزنجشیری متحدثاً عن نفسه : « فلما أصيب في مستهل شهر الله الأصم (أى رجب) الواقع في سنة ثنتي عشرة بعد الخمسمائة بالمرضعة الناهكة التي سماها المنذرة وكانت سبب إنايته وفيثته وتغير حاله وهيبته وأخذته على نفسه الميثاق لله إن من الله عليه ألا يظأ بأخصه عتبة السلطان ولا واصل بمُخدمة السلطان أذباله . وأن يربأ بنفسه واسانه عن قرض الشعر فيهم ورفع العقيرة في المدح بين أيديهم وأن يعف عن ارتزاق عطياتهم وافتراس صلواتهم مرسوماً وإدراكاً وتسويفاً ونحوه ويجد في إسقاطه اسمه من الديوان ونحوه وأن يعنف نفسه حتى تقيء ما استطعت في ذلك فيما خلا لها في سني جاهليتها وتنقع بقرصيها وطمريرها وأن يعتم بمجبل التوكل ويتمسك . ويتبتل إلى ربه ويتنسك ويجعل مسكنه لنفسه محبساً ويتخذها ذا مخيساً . ولا يريم عن قراره ما لم يضطره أمر خير لا يجد الصالح بدءاً من توليه بخطوه وألا يدرس من العلوم التي هو بصدها إلا ما هو مهيب بدارسه إلى الهدى وراذع له عن مشايعة الهوى ومجد عليه في علوم القراءات والحديث وأبواب الشرع من عرف منه أنه يقصد بارتياده وجه الله تعالى ويرى به الغرض الراجع إلى الدين ضارباً صفحاً عن يطلبه ليتخذة أهبة للمباهاة وآلة للمنافسة . . . »^(١) فالتأليف عند الزنجشیری منذ سنة ٥١٢ هـ تأليف يرى إلى غاية دينية . نرى مصداق هذا في مؤلف نحوي ألفه بعد سنة ٥١٢ هـ وهو المفصل في صنعة الإعراب ، وكان شروعه في تأليفه في غرة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخسمائة وفرغ منه في غرة المحرم سنة خمس عشرة وخسمائة^(٢) في هذا التاريخ الذي كان قد غلب فيه على نفسه التصوف والتنسك وأصبحت غايته من التأليف غاية

(١) ص ٧-١٠ من خطبة كتاب مقامات الزنجشیری .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٠٧ .

دينه نرى الزمخشري يبدأ مقدمة كتابه المفصل بطعن الشعوبية الذين يرى في مذهبهم مظهراً غير ديني . يقول الزمخشري : « ولعل الذين يغضون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون أن يخفضوا ما رفع الله من منارها حيث لم يجعل خيرة رسله وخير كتبه في عجم خلقه ولكن في عربيه لا يبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الأبلج وزيفاً عن سواء المنهج . والذي يقضى منه العجب حال هؤلاء في قلة إنصافهم وفرط جورهم واعتسافهم وذلك أنهم لا يجدون عالماً من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها وعلمى تفسيرها وأخبارها إلا وافتراره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع^(١) . ثم الزمخشري يرى أن لعلم الإعراب فضلاً على التفسير القرآني وعلى معرفة الإعجاز القرآني وفي هذا نرى أيضاً مظهراً آخر للدافع الديني لتأليف كتابه يقول في مقدمة الفصل : « فإن الإعراب أجدى من تفاريق العصا وآثاره الحسنة عديد الحصا ومن لم يتق الله في تنزيله فاجترأ على تعاطي تأويله وهو غير معرب ركب عمياء وخبط خبط عشواء وقال ما هو تقول واقتراء وهراء وكلام الله منه براء وهو المرقاة المنصوبة إلى علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن الكافل بإبراز محاسنه الموكل بإثارة معادنه فالصاد عنه كالساذ لطرق الخير كيلا تسلك والمريد بموارده أن تعاف وتترك^(٢) . ثم هو يقول أيضاً كاشفاً عن غايته من تأليف الكتاب في مقدمة الفصل : « ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب وما بي من الشفقة والحذب على أشياعي من حفده الأدب لإنشاء كتاب في الإعراب محيط بكافة الأبواب مرتب ترتيباً يبلغ بهم الأمد البعيد بأقرب السقى ويملاً سجالهم بأهون السقى فأنشأت هذا الكتاب المترجم بكتاب المفصل في صنعة الإعراب^(٣) . فهذه النصوص جميعها من مقدمة الكتاب متضافرة على أنه ينبغي خدمة الدين بالعلوم العربية .

(١) مقدمة شرح المفصل الزمخشري لابن يعيش . ط أوربا .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر السابق .

ثم لا نعلم بعد له مؤلفات أخرى في هذا الوادى ولكننا تلقى بعدئذ الكتاب الذى كشف لنا عن تاريخ تنسكه وغلبة الدين على نفسه وهو كتاب « مقامات الزمخشري » ويظهر أنه ألفه بمكة وأهداه لابن وهاس في جواره الأول، فإنه يقول في مقدمته: « أسأل الله أن يفعم لك سجال النعم ويعينك على إفادة أهل الحرم وإفادة الوفاة من أقاصى البلاد ويكتبك ببركة هذا البيت العتيق في زمرة العتقاء من النار ويثبت اسمك في جملة الأبرار الذين لهم عقبى الدار »^(١) ألفه بعد مرضه سنة ثنتي عشرة وخمسة وثمانين مقالة يعظ فيها نفسه وينهاها أن تركز إلى دينها الأول ليتعظ غيره ويعتبر^(٢) وفي كتابه هذا ينحى باللائمة على من يسخرون علمهم وأديهم للملوك مفيداً من تجربته الشخصية^(٣) وينعى - وهو قد عاشر الملوك وذوى الجاه - على من يذلون للملوك دونه ذلهم لله^(٤) ويحط للزمخشري - وقد بدأ حياته مداحاً من شعر المدح الذى يقدم بين يدي الملوك^(٥) ثم يطلب من نفسه أن تتأى عن حب الشهرة وطيران الاسم في الآفاق^(٦) ونلمس في الكتاب صدق العاطفة وحرارة الشعور وتدقق التعبير لأنه صورة قولية من حياة منشئه .

ثم كتاب آخر نجده للزمخشري يكشف عن هذا الدافع الدينى له على التأليف وهو كتابه « الفائق في غريب الحديث » وقد أتمه في شهر ربيع الآخر سنة ٥١٦ هـ^(٧) . يقول الزمخشري في مقدمة كتابه مبيناً الغاية الدينية التى سيطرت عليه ودفعتة إلى التأليف في غريب الحديث؛ تلك الغاية التى كانت ترمى إلى رضا الناس عنه وجميل ذكركم له بعد رضوان الله عليه والأمل في

(١) مقامات الزمخشري ص ٤ و ٥ .

(٢) مقامات الزمخشري ص ١١ .

(٣) مقامة الظلاف ص ٧٢ - ٧٨ من مقامات الزمخشري .

(٤) مقامة العبادة ص ١١٨ - ١٢٢ من مقامات الزمخشري .

(٥) مقامة اجتناب الظلمة ص ١٣١ - ١٣٧ من مقامات الزمخشري .

(٦) مقامة الحمول ص ١٨٥ - ١٨٩ من مقامات الزمخشري .

(٧) كشف الظنون لحاجي خليفة . ط أوربا ج ٢ ص ١٢١٧ .

جزيل الثواب منه؛ يقول: « وقد صنف العلماء رحمهم الله في كشف ما غرب من ألفاظه واستبهم وبيان ما اعتاص من أغراضه واستعجم كتباً تنوقوا في تصنيفها وتجدوا واحتاطوا ولم يتجاوزوا وعكفوا المهم على ذلك وحرصوا واغتنموا الاقتدار عليه واقتصرنا حتى أحكموا ما شاءوا واترصوا... ولم يدع المتقدم للمتأخر خصاصة يستظهر بها على سدها ولا أنشودة يستهضه لشدها ولكن لا يكاد يجد بدءاً من نبع في فن من العلم وصيغ به يده، وعانى فيه وكده من استجاب أن يكون له فيه أثر يكسبه في الناس لسان الصدق وجمال الذكر ويخزن له عند الله جزيل الأجر وسنى الذخر وفي صوب هذين الغرضين ذهبت عند صنعة هذا الكتاب... فأية نفس كريمة ونسمة زاكية نور الله قلبها بالإيمان والإيقان مرت على هذا التبيان والإنتقان فلا يذهبن عليها أن تدعولى بأن يجعله الله في موازيني ثقلاً ورجحاناً ويثيني عليه روحاً وريحاناً»^(١) بل هو يستشفع الرسول صلى الله عليه وسلم بمؤلفيه « الفائق » وتفسيره « الكشاف » فيقول :

فهل تتلقانى شفاعة أحمد وعفو كريم للإساءة ما حص
 وهل يكشف الكشاف والفائق العنى إذا تليت يوم القضاء القصاص
 يمد الكتاب النور والسنة السن متى لحصت في الجامعين اللامخاض^(٢)

وفي جواره بمكة ذلك الجوار الذى حفل بنشاط علمى موفور ألف أيضاً كتابه « أطواق الذهب فى المواعظ والخطب » وهو مؤلف قبل تفسير الكشاف إذ قد ورد نص منه فى الكشاف ولكن ليست تسميته بأطواق الذهب هى التسمية الأصلية بل التسمية الأولى دون تزويق هى « النصائح الصغار »^(٣) . يقول

(١) الفائق فى غريب الحديث للزمخشري ج ١ ص ٢ و ٣ الطبعة الأولى بحيدر آباد الدكن لسنة ١٣٢٤ هـ .

(٢) مخطوط ديوان الأدب للزمخشري ورقة (٦٦) .

(٣) يرى باريه دى مينارد ناشر « أطواق الذهب » طبعة أوروبا أن التسمية الأصلية « النصائح الصغار » نيت وبقيت أقدم تسمية لناشر كتاب الزمخشري وهى التسمية المزروعة « أطواق الذهب » .

الزنجشري في تفسير الكشاف : « وفي النصائح الصغار املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأجلهما في جملة هذه العجائب متفكراً في قدرة مقدرها متديراً بحكمة مدبرها قبل أن يسافر بك القدر ويحال بينك وبين النظر»^(١) وهذا النص بعينه في « أطواق الذهب » في الصفحة السابعة والتسعين . و« أطواق الذهب » يهدف أيضاً إلى غاية دينية فهو للعهه ثم هو مظهر من مظاهر التحول الذي طرأ على حياة الزنجشري فلونها بلون الزهد يقول الزنجشري في مقدمة كتابه : « وأرغب إليك أن تجعل عقيدتي وطويتي وبدييتي ورويتي وما خط بناني خطر يجناني وكل ما ألفتة من أقوالى وكلمى وأسلة مقولى على سن قلمى خالصة لك ومن أجلك مطلوبة بها نفحات سجلك وأن تفيض على هذه المقالات من البركة والقبول ما يهبها مهب الجنوب والقبول وأن تحفظ فيها ما أوجبت للجار من حتى الأمام والذمار لأنها وجدت في حرمك المطهر وولدت في حجر بيتك المستر»^(٢) .

والكتاب كله ثورة على النفس الأمانة بالسوء وثورة على الأوضاع الاجتماعية في عصره . فهو يحمل على الفلسفة والتنجيم^(٣) وعلى السلاطين الظلمة^(٤) ويغمز الزعماء والطغاة^(٥) ويدعو على عبيد السلاطين الظلمة^(٦) ويهجم بعنف على النقلة المقلدين^(٧) ويغمز القضاة المرتشين^(٨) ويلوم المستجدين^(٩) وينصح لعبدة المال أن يفكوا إسارهم من عبادة الدرهم والدينار - وألا يرجوا من الملوك خيراً أبداً^(١٠) . ويطعن عبدة المال من العلماء الذين يطلبون بالدين

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) مقدمة أطواق الذهب في المواعظ والمخطب ص ٤ - ٧ .

(٣) أطواق الذهب المقالة الثالثة والعشرون ص ٣٠ - ٣١ .

(٤) أطواق الذهب المقالة الثانية والثلاثون ص ٤١ و ٤٢ .

(٥) أطواق الذهب المقالة السابعة وعشرون ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٦) أطواق الذهب المقالة السادسة والثلاثون ص ٤٥ ، ٤٦ .

(٧) أطواق الذهب المقالة السابعة والثلاثون ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٨) أطواق الذهب المقالة الأربعون ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٩) أطواق الذهب المقالة الثالثة عشرة ص ٢٠ .

(١٠) أطواق الذهب المقالة الثالثة والثلاثون ص ٤٢ ، ٤٣ .

الدنيا^(١) وينقد المرائين في العبادة^(٢) ويتجه بالنصححة إلى الملوك العبيد الذين عليهم أن يذلوا لله الملك القهار^(٣). ولما رأى الزمخشري من الحياة ما رأى وشاهد من أدواء المجتمع الإسلامي ما شاهد اعتزل ودعا إلى العزلة^(٤) وغلب عليه التدين فعلم العبادة لديه خير العلوم^(٥) واستأثرت به العاطفة الدينية فتصوف ودعا إلى التوكل فشفاء المرضى توكلهم لا استشارتهم الطيب^(٦).

ومن تلك الكتب التي طبعت بطابع التنسك والتي ألفها الزمخشري بمكة كتابه «نوايغ الكلم» وفي هذا الكتاب نرى زبدة تجاربه في الحياة وصورة من شخصيته مطبوعة فيما يجريه من مثل . والكتاب مؤلف قبل تفسير الكشاف. يقول الزمخشري في الكشاف^(٧): «وفي نوايغ الكلم صنوان من منح سائله ومنّ، ومن منع نائله وضمن^(٨) وفيها طعم الآلاء أصلى من المن وهي أمر من الآلاء مع المن»^(٩).

وله مؤلفان نحويان أفهما بمكة ولا ندرى - على التحديد - متى ألفا ولعلهما مؤلفان في جوار الزمخشري الأول بمكة، أحدهما «المفرد والمؤلف» أهداه لأهل مكة . وفي مقدمته يقول: «هذا كتاب المفرد والمؤلف عملته لذوي السابقة والكرم من ساكني الحرم عمل من طب لمن حب وتوخيت فيه قيد الأوابد وصيد الشوارد وتقريب ما يبعد عن الفهم وتسهيل ما تصعب إلا على الشهم وضمنت لمن يضبط هذا الترتيب ويجذو هذه الأساليب أن يضرب له مع المعربين بسهم الفارس ويظير اسمه بينهم بضرب القوانس . وسألت ربي

-
- (١) أطواق الذهب المقالة الثالثة والأربعون ص ٥٣ - ٥٥ والمقالة الثالثة والثمانون ص ٩٩، ٩٨.
 (٢) أطواق الذهب المقالة الحادية والخمسون ص ٦٤ .
 (٣) أطواق الذهب المقالة الثانية والخمسون ص ٦٥ .
 (٤) أطواق الذهب المقالة السابعة ص ١٤ .
 (٥) أطواق الذهب المقالة السادسة والخمسون ص ٧٠ ، ٧١ .
 (٦) أطواق الذهب المقالة الثالثة والخمسون ص ٦٦ ، ٦٧ .
 (٧) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٢٥ .
 (٨) النص ص ٨ و ٩ من نوايغ الكلم - الطبعة الأولى بالمطبعة الكلية سنة ١٣٣٢ هـ .
 (٩) النص ص ١٩ من نوايغ الكلم .

أن ينطق في ألسنتهم بحق ويجعل لى منهم لسان صدق وحسبى بثنائهم فخرأ مشيدأ وبدعأهم ذخرأ مخلدأ»^(١) فهو يتوسل بدعاء ساكنى الحرم له عند الله . وأما ثانيهما فهو كتاب « محاجات و متمم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والأغلوطات » ولعل الكتاب مهدى إلى ابن وهاس أمير مكة الذى يستشفع بدعائه له عند الله . يقول الزمخشرى فى مقدمة الكتاب: « وهذه أيها العذرى العلامة بعقاييل الأفكار العامرى الصبوة إلى خرايدها كلما برزت عذراء فائدة عن خدرها فأومضت نفاثة فى عقد سحرها أخذتها فضممتها إلى كتبك وأسكتتها خزانة لبك فالتقطته حبة قلبك وتعاطته سلافة حبك حرصأ منك على نشدان ضوال الحكم واقتناص أوابد النكت على أن حق الحكمة بأبلغ من ذلك قمن وما لك إلا ما شدوت منها ثمن .

ثمان^(٢) مسائل نحوية مسوقة فى مسالك الحاجة فى سلوك المعاياة لا تستملى منها مسألة إلا سقطت على أملوحة من الأماليح العلمية وأفكوهة من الأفاكهية الحكمية تراض شكأتمها وتنقاد الأذهان حتى ترجع بعد جهات الإباء سلسات العنان فتلقها تلقى الهائم المستهتر واعتنقها اعتناق الغايب المنتظر وأكرم موردها عليك وأعز موفدها إليك وبوئها من رغبتك حق مبأها واجعل قراها مواصلة قراءتها ولا تخل منشها من بعض دعواتك فى بعض أدبار صلواتك لعل دعوة منها ترفع ولعلك تُشفع لى فتشفع أنك على باب رحيم ودود مفتوح لائذ^(٣) ببابه غير مردود وهو وحسبنا ونعم الوكيل^(٤) .

ثم فى مكة ألف كتابه - فى جواره الثانى - فى التفسير « الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل » وسنعرض له بعد . ثم بعد الكشاف ألف كتابه الأدبى « ربيع الأبرار » والذى حداه إلى تأليفه ما يسوقه فى مقدمته

(١) مخطوط المفرد والمؤلف للزمخشرى ورقة ١ .

(٢) هكذا ولعل هناك سقط قبل ذلك .

(٣) فى الأصل (لاذ) .

(٤) مخطوط محاجات و متمم مهام أرباب الحاجات فى الأحاجى والأغلوطات ورقة ١ .

إذ يقول: « هذا كتاب قصدت به إجمام خواطر الناظرين في الكشف عن حقائق التنزيل وترويح قلوبهم المتعبة بإجالة الفكر في استخراج ودائع علمه وخباياه والتفتيش عن أذهانهم المكدودة باستيضاح غوامضه وخفاياه وأن يكون مطالعته ترفهاً لمن قل والنظر فيه أحماضاً لمن اختل» ويظهر أنه ألف هذا الكتاب في أثناء رحلته عائداً إلى وطنه بعد جواره الثاني . ثم من مؤلفات الزمخشري بعد تفسيره الكشف كتاب « أساس البلاغة» وفي هذا الكتاب نرى نصوصاً من كتابه الآخر « نوايح الكلم» المؤلف قبل تفسير الكشف في مادة «ج د ب» من أساس البلاغة يقول: (وفي نوايح الكلم من كان أدب كان رحلة أجذب»^(١) وفي مادة (رق ن) من أساس البلاغة يقول: « العلم درس وتلقين لا طرش وترقين»^(٢) ثم ورد ذكر الكشف في مادة (ح ف ر) من أساس البلاغة يقول الزمخشري عندها: « وقد ذكرت حقيقة الكلمة في الكشف في حقائق التنزيل»^(٣).

فكل تلك النصوص تومئ إلى أن الكتاب مؤلف بعد تفسير الكشف ، والكتاب بعد خادم لقضية الإعجاز القرآني بما يوقفنا عليه من تلون التعبير الأدبي بأساليب الحقيقة أو المجاز . وهو إذن من وادي الكتب التي ألفتها الزمخشري في الطور الأخير من حياته مدفوعاً بالعاطفة الدينية التي غلبت عليه . يقول في مقدمة أساس البلاغة: « ولما أنزل الله كتابه مختصاً من بين الكتب السماوية بصفة البلاغة التي تقطعت عليها أعناق العتاق السبق وونت عنها خطا الحياد القرع كان الموفق من العلماء الأعلام أنصار ملة الإسلام الذايين عن بيضته الحنيفية البيضاء والمبرهنين على ما كان من العرب العرباء حين تحلوا به من الإعراض عن المعارضة بأسلات السنهم والقرع إلى المقارعة بأسنة أسلهم من كانت مطامح نظرة ومطارح فكرة الجهات التي توصل إلى تبين مراسم البلغاء والعمور على منازم العظاماء

(١) أساس البلاغة ج ١ ص ١١٠ .

(٢) أساس البلاغة ج ١ ص ٣٦٤ .

(٣) أساس البلاغة ج ١ ص ١٨٤ .

والمخابرة بين متداولات ألفاظهم ومتعاورات أقوالهم والمغايرة بين ما انتفعوا منها وانتخلوا وما انتفوا عنه فلم يتقبلوا وما استركوا واستترلوا وما استفصحو واستجزلوا والنظر فيما كان الناظر فيه على وجوه الإعجاز أوقف وبأسراره ولطائفه أعرف حتى يكون صدر يقينه أثلج وسهم احتجاجه أفلج وحتى يقال هو من علم البيان حظى وفهمه فيه جاحظى وإلى هذا الصوب ذهب عبد الله الفقير إليه محمود بن عمر الزمخشري عفا الله عنه في تصنيف (كتاب أساس البلاغة)^(١).

ولكن الكتاب خادم لقضية الإعجاز من وجهها الاعتزالي فهو تحقيق عملي لرأى المعتزلة في أن معظم اللغة مجاز يكشف عن ذلك الزمخشري في كلامه عن خصائص الكتاب إذ يقول في المقدمة: « ومن خصائص هذا الكتاب تأسيس قوانين فصل الخطاب والكلام الفصيح بإفراد المجاز عن الحقيقة والكناية عن التصريح »^(٢) فنراه يعقب كل مادة بالعبارات التي وقعت مجازاً فيها . وكتابه « أعجب العجب في شرح لامية العرب » ألفه بعد أساس البلاغة ولا ندري لمن يسوق مقدمته إذ يقول: « هذه نكتة قدّمها خواطر خاطري وفائدة جردتها نواظر نواظري . . جعلتها على شرح قصيدة الشنفرى الموسومة بلامية العرب تحفة أتحتف بها الخزانة السعيدية والحضرة العزية ذا الآلاء المتظاهرة والنعم الوافرة تنهى المفاخر في العلوم إليه وتثنى الخناصر في الآداب عليه . . وخطابي لمن نشأ في علم الإعراب وحقق في ميادين أفكاره بالعجب منه والإطراب وسرد علمي المعاني والبيان وعرف التحقيق فيهما من التبيان وطالع أساس البلاغة وعرف براعة البراعة . . الخ »^(٣).

وآخر تأليفه فيما نعلم كتابه « مقدمة الأدب » ألفه لتعليم الفرس اللسان العربي وقد أهداه إلى الأمير أتمز الملك الخوارزمشاهي^(٤) « مقدمة الأدب ص ١ - ٣ » كما مر بنا قبل .

(١) مقدمة أساس البلاغة ج ١ صفحة (ج) .

(٢) مقدمة أساس البلاغة ج ١ صفحة (د) .

(٣) ص ٢ ، ٣ من مقدمة أعجب العجب في شرح لامية العرب للزمخشري - الطبعة الثالثة

سنة ١٣٢٨ هـ - مصر .

(٤) مقدمة الأدب ص ١ - ٣ .

تلك هي سمات النشاط العلمى الذى حفلت به حياة الزمخشري كما استطعنا أن نتبينه من المؤلفات القليلة التى أبقاها الزمن . غير أنه يتصدرها جميعاً مؤلفه فى التفسير « الكشاف » فهو الذى يمثل قمة مجده العلمى بحق - كما نرى - إذ أودعه الزمخشري خلاصة علمه ولب معارفه وامتزج فيه صدق العاطفة نحو الاعتزال كمذهب ونحو الإسلام كدين وقوة العقل بما استودعه من علم كلامى ونضج المعرفة بما وعاه من ثقافة متعددة الأطراف .